كتاب

خمرة ألحان ورنة الألحان

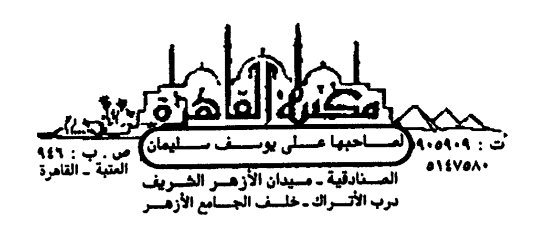
شرح رسالة الشيخ أرسلان

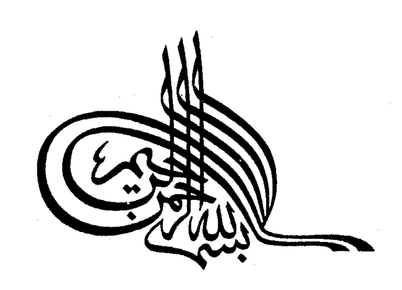
تأليف

الشيخ عبد الغنى بن إسماعيل بن النابلسى

الطبعة الثالثة

١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م





رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٠٥/٣٩٩٣
الترقيم الدولى I.S.B.N
977-401-003-5

مكتبة القاهرة
لصاحبها: على يوسف سليمان وأولاده
١٢ شارع الصنادقية بالأزهر ت: ٥٩٠٥٩٠٩
١١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر ت: ٥١٤٧٥٨٠
ص.ب ٩٤٦ رمز بريدى ١١٥١١
العتبة ـ القاهرة ـ الأزهر
جمهورية مصر العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذى طهر قلوب أوليائه بمياه اليقين من دنس الأغيار . ورفع عن وجوه عقولهم قناع الغفلة والاغترار . وألبسهم حلل المعرفة والاعتبار . وما لبس عليهم آياته البينات فى الليل والنهار . والصلاة والسلام على مفتاح خزانة الغيب المطلق . وكشف أسرار العالم المغلق . نبينا ورسولنا من حضرة الحق محمد المختار قطب حركة الأدوار وعلى آله الهادين . وعلى أصحابه والتابعين إلى يوم الدين .

(أما بعد) فيقول أسير الذنوب . وإناء النقائص والعيوب . عبد الغنى ابن اسماعيل بن النابلسى القادرى طريقة . النقشبندى حقيقة . غلب الله تعالى على ذاته بذاته . وعوضه عن صفاته بصفاته .

هذا شرح أمطرته سموات إلهامى . وفاضت به على فى حضرة فتحى بحار النجلى السامى . وضعته للرسالة الشريفة . بل الجوهرة المنيفة . التى قذف بها بحر الفيض الأقدس . فى العالم الأنفس . على لسان الأمجد الأفخم . والضرغام الأعظم زبدة الأولياء . وخلاصة الأصفياء . بركة الأنس والجان . سيدى الشيخ أرسلان . المنسوب إلى دمشق الشام . لكونه نشأ فيها ومات بها عليه رحمة الله الملك العلام . فيالها من رسالة مشمولة بالأنظار الإلهية . معطرة بالأنفاس الطيبة والنفحات القدسية . تتألق بروق المعارف من مطالع أفلاكها . وتتناثر درر اللطائف من قلائد أسلاكها . تنفح فى رياضها كمائم القبول . فليس من العجائب انى أنشد فى وصفها وأقول:

عن أرسلان جاء علم الحقائق	حيث أهدى رسالة للخلائق
وسقانا بكأسه منه صرفاً	فسكرنا بسائغ الشرب رائق
كل حرف منها يشير لمعنى	سائق نحو ذروة المجد شائق
وعليها طلاوة وبهاء	حيث حازت أسرار كل الطرائق

نفـــــع الله ربــــنا بهداهــــا فـــى طـــروس كـــأنهن حدائـــق

كـــلمات قـــد أزهـــرت بمعـــان كـــل مـــن رامهـــا لقطـــع العلائـــق

وعيـــنا أعـــاد مـــن بـــركات الشـــيخ مـــا ســـاق للحقـــيقة ســـائق

فدونك شرحاً لها يفصح بمعونة الله تعالى عن المرام وينادى على أبواب جنانها بعد الفتح أدخلوها بسلام . وقد سميته (خمرة إلحان ورنة الألحان فى شرح رسالة الشيخ أرسلان) . والله ﷻ ولى الهداية ومنه التوفيق والعناية وهو حسبى ونعم الوكيل والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

مقدمة الكتاب

إعلم أولا علمك الله تعالى كل خير . وحفظك من الزلل فى كل وقوف وسير إن الشرك بالله تعالى . نعوذ بالله تعالى منه من أقبح الذنوب . وأخبث العيوب . لا يغفره الله تعالى أبداً وإن غفر ما سواه من المعاصي يوم الأخذ بالنواصى .

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (النساء:١١٦) . وقال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (الحج:٣١) .

وحكى تعالى عن لقمان عليه السلام أنه قال لابنه وهو يعظه ﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾(لقمان:١٣) وقال تعالى : ﴿ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴾ (المائدة:٧٢) . وهذا الشرك المذكور فى هذه الآيات مطلق من غير تقييد بشرك دون شرك فيشمل الشرك الجلى والشرك الخفى إذ النوعان شرك محقق سواء كان جليا واضحا أو خفيا مكتوما فان اعتبرنا فى الشرك الجلى ظهوره لصاحبه وفى الخفى خفاؤه عن صاحبه فإن كل شرك فى الأرض كذلك لأن المشركين لا يعلمون أنهم مشركون بالله تعالى وإن عبدوا معه آلهة أخرى لتعللهم بأنهم وجدوا على ذلك آبائهم أو قصدهم أن تقربهم تلك الآلهة إلى الله زلفى كما حكى الله تعالى عنهم فى القرآن العظيم فهم مشركون ولا يعلمون أنهم مشركون وإن اعتبرنا فى الشرك الجلى ظهوره لغير صاحبه وفى الخفى خفاؤه عن صاحبه فلا يفرق حينئذ بين الجلى والخفى لأن الخفى ظاهر عند غير صاحبه أيضاً فالشرك عند الله تعالى قسم واحد وإن أنقسم على نوعين عند المتكلمين قال الله تعالى ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ (الكهف:١١٠) .

والعبادة اعتقاد وقول وعمل وأحد نكرة وقعت فى سياق النهى فتعم كل معقول ومحسوس فتشمل الشرك الجلى والخفى واعلم أن الشرك الجلى هو أن يظهر للعبد أو لغيره اعتقاد أن مع الله رباً آخر يستحق العبادة من الخلق أو مع الله تعالى غيره موصوفا بصفة مثل صفاته تعالى أو فعل له كأفعاله تعالى أو اسم كأسمائه أو حكم كأحكامه والشرك الخفى هو خفاء شئ من ذلك عن العبد وهو فيه بسبب استيلاء الغفلة على قلبه فترى الغافل عن معرفة نفسه جازماً بأنه مشارك لله تعالى فى الوجود وفى جميع الصفات التى منها السمع والبصر والعلم والحياة والقدرة والإرادة وغير ذلك وفى جميع الأسماء التى منها الحكيم

والكريم واللطيف والعليم إلى آخره وفي جميع الأفعال كالإيجاد للعبادات والإعدام للمخالفات ونحو ذلك وفي جميع الأحكام كالجزم بالحرام والحلال على الأمور الداخلة بانفرادها وتشخصها تحت أحكام القرآن والسنة ومع ذلك هو غافل عما هو فيه غير منتبه لأمره قاطع بأنه موجود آخر مع الله تعالى موصوف بأوصاف مسمى باسامى له أفعال وأحكام تصدر منه بحيث أنه إذا انتبه لما ذكرناه فيه وانصف فى نفسه بنفسه أستيقظ لذلك ونسب ما فيه مما ذكرناه لله تعالى بطريق الإجمال وهو مصر فى نفسه على عدم ذلك جهلا منه بكيفية إيقاع النسبة بمنزلة من اختبئ من عدوه فى مكان فجاء عدوه يطلبه فلم يجده فخاف أن يجده فقال له أنا فى غير هذا المكان فسمع كلامه العدو فأخذه وهو لا يشعر بأنه يعلمه بكلامه وكذلك هذا يرى ما قلنا له أنه فيه ويتخيله ثم ينفيه عن نفسه بنفسه فيثبته فى حالة نفيه ولا يشعر حتى يسلم لله رب العالمين ولو شعر وأسلم لله رب العالمين فقد أشرك أيضاً شركا خفياً عنه وهو لا يشعر حتى يسلم لله رب العالمين وهكذا دائماً أبداً حتى يشعره الله تعالى لا هو يشعر بنفسه وحتى يسلمه الله تعالى له لا هو يسلم لله تعالى بنفسه وحتى يحصل فيه ذلك فى نفسه من الله تعالى لله تعالى لا هو يحصل ذلك من نفسه بنفسه وحتى يجد ذلك فى نفسه لا يوجده هو بنفسه .

قال النبى ﷺ: (لعرضوا لنفحات الحق فان لله تعالى فى أيام دهركم نفحات) والتعرض إنما يكون بالتهيئ وإزالة الموانع وأصل ذلك الإيمان بالغيب عن العقل والحس والاستسلام لذلك باطنا وظاهراً حتى لا يبقى فى العبد خاطر ينازعه فى شئ من الدين ثم التأدب فى معاملة الحق والخلق بالآداب الشرعية أمراً ونهياً حتى يجد الجاذب من قلبه إلى حضرة ربه من غير تكلف ويدخل فى مقام الجذبة الالهية كما قال ﷺ (جذبة من جذبات الحق توازى عمل الثقلين) . فعند ذلك يدخل فى تصرف الحق تعالى وتنعزل نفسه عن التصرف فيه فيسلم من الشرك الخفى والجلى ويدخل فى دائرة أهل التوحيد فإما أن يبقى فى مقام الجذبة مسلوب الاختيار أو يرد إلى مقامه الأول فيكون مسلوب الاختيار فى حالة أختياره مطلعاً على مراكز أضطراره يعلم ولا يعلم وهو موجود وليس بموجود وفاعل وليس بفاعل وهكذا جميع أحواله متناقضة وفى هذا التناقض عين الوفاق قال تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ (الأنفال:١٧) . فالعبد رمى وما رمى كما أنه موجود وما هو موجود فافهم أن كنت من أهل الفهم وأحترز من تلبيسات الوهم .

متن الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

كلك شرك خفى ولا يبين لك توحيدك إلا إذا خرجت عنك فكلما أخلصت يكشف لك أنه هو لا أنت فتستغفر منك . وكلما وحدت بان لك الشرك فتجدد لَه فى كل ساعة ووقت توحيداً وإيماناً . وكلما خرجت عنهم زاد إيمانك . وكلما خرجت عنك قوى يقينك .

يا أسير الشهوات والعبادات . يا أسير المقامات والمكاشفات أنت مغرور أنت مشتغل بك عنه أين الاشتغال به عنك . وهو ﷻ حاضر ناظر وهو معكم أينما كنتم فى الدنيا وفى الآخرة . إذا كنت معه حجبك عنك . وإذا كنت معك استعبدك لَه .

الإيمان خروجك عنهم . واليقين خروجك عنك .

إذا زاد إيمانك نقلت من حال إلى حال . وإذا زاد يقينك نقلت من مقم إلى مقام

الشريعة جعلت لك حتى تطلبه منه به تعالى لك والحقيقة لَه حتى تطلبها به لَه ﷻ حيث لا حين ولا أين . فالشريعة حدود وجهات . والحقيقة لاحد ولا جهة . القائم بالشريعة فقط تفضل عليه بالمجاهدة . والقائم بالحقيقة تفضل عليه بالمنة وشتان ما بين المجاهدة والمنة . القائم مع المجاهدة موجود . والقائم مع المنة مفقود .

الأعمال متعلقة بالشرع الشريف والتوكل متعلق بالإيمان والتوحيد متعلق بالكشف الصحيح .

الناس تائهون عن الحق بالعقل . وتائهون عن الآخرة بالهوى . فمتى طلبت الحق بالعقل فقد ضللت . ومتى طلبت الآخرة بالهوى فقد ضللت .

المؤمن ينظر بنور الله . والعارف ينظر به إليه .

ما دمت أنت معك أمرناك . فإذا فنيت عنك توليناك . وما تولاهم إلا بعد فنائهم

ما دمت أنت فأنت مريد . فإذا أفناك عنك فأنت مراد .

اليقين الأدوم فى غيبتك عنك ووجودك به .

فكم بين ما يكون بأمره وبين ما يكون به . إن كنت قائماً بأمره خضعت لك الأسباب

. وإن كنت قائماً به تضعضعت لك الأكوان .

أول المقامات الصبر على مراده . وأوسطها الرضا بمراده . وآخرها أن تكون بمراده

العلم طريق العمل . والعمل طريق العلم . والعلم طريق المعرفة والمعرفة طريق الكشف . والكشف طريق الفناء .

ما صلحت لنا وفيك بقية لسوانا . فإذا حولت السوى أفنيناك عنك فصلحت لنا فأودعناك سرنا ـ إذا لم يبق عليك حركة لنفسك كمل يقينك، وإذا لم يبق لك وجود عندك كمل توحيدك ـ أهل الباطن مع اليقين . وأهل الظاهر مع الإيمان . فمتى تحرك قلب صاحب اليقين نقص يقينه . ومتى لم يخطر له خاطر كمل يقينه . ومتى تحرك قلب صاحب الإيمان بغير الأمر نقص إيمانه . ومتى تحرك بالأمر كمل إيمانه .

معصية أهل اليقين كفر . ومعصية أهل الإيمان نقص ـ المتقى مجتهد . والمحب متكل: والعارف ساكن والموجود مفقود . لا سكون لمتقى . ولا عزم لمحب ولا حركة لعارف . ولا وجود لمفقود .

ما تحصل المحبة إلا بعد اليقين .

المحب الصادق قد خلا قلبه مما سواه . وما دام عليه بقية محبة لسواه فهو ناقص المحبة .

من تلذذ بالبلاء فهو موجود . ومن تلذذ بالنعمة فهو موجود . فإذا أفناهم عنهم ذهب التلذذ بالبلاء والنعمة ـ المحب أنفاسه حكمة . والمحبوب أنفاسه قدرة .

العبادات للمعاوضات . والمحبة للقربات ـ أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ـ لما أرادونى لى أعطيتهم مالا عين رأت ولا أذن سمعت .

إذا أفناك عن هواك بالحكمة . وعن إرادتك بالعلم صرت عبداً صرفاً لا هوى لك ولا إرادة . فحينئذ يكشف لك عن نفسك فتضمحل العبودية فى الوحدانية . فيفنى العبد ويبقى الرب تعالى .

الشريعة كلها قبض . والعلم كله بسط . والمعرفة كلها ادلال .

طريقتنا كلها محبة لا عمل . وفناء لا بقاء .

إذا دخلت فى العمل كنت لك . وإذا دخلت فى المحبة كنت لَه . العابد راء لعبادته . والمحب راء لمحبته

إذا عرفته كانت أنفاسك به وحركاتك لَه . وإذا جهلته كانت حركاتك لك . العابد ماله سكون . والزاهد ماله رغبة . والصديق ماله ارتكان . والعارف ماله حول ولا لَه قوة ولا اختيار ولا إرادة ولا حركة ولا سكون .

الموجود ماله وجود .

إذا استأنست به استوحشت منك .

من اشتغل بنا لَه أعميناه . ومن اشتغل بنا لنا بصرناه .

إذا زال هواك يكشف لك عن باب الحقيقة فتفتى إرادتك فيكشف لك عن الوحدانية فتحققت به انه هو بلا أنت معه .

إن سلمت إليه قربك . وان نازعته أبعدك . ان تقربت إليه به قربك . وان تقربت إليه بك أبعدك . ان طلبته لك كلفك . وان طلبته لَه دللك . قربك خروجك عنك . وبعدك وقوفك معك .

إن جئت بلا أنت قبلك . وان جئت بك حجبك .

العامل لا يكاد يخلص من رؤية عمله . فكن من قبيل المنة ولا تكن من قبيل العمل . إن عرفته سكنت . وان جهلته تحركت . فالمراد أن يكون ولا تكون .

العوام أعمالهم متهمات . والخواص أعمالهم قربات . وخواص الخواص أعمالهم درجات . كلما اجتنبت هواك قوى إيمانك . وكلما اجتنبت ذاتك قوى توحيدك .

الخلق حجاب . وأنت حجاب، والحق ليس بمحجوب . ومحتجب عنك بك . وأنت محجوب عنك بهم . فانفصل عنك تشهده والسلام .

إن الوجـــود حقـــيقة لا تـــدرك وقـــف الموحـــد دونهـــا والمشـــرك

تـــراه إن غـــاب عـــنى كـــل جارحـــة فـــى كـــل معـــنى لطـــيف رائـــق بهـــج
فـــى نغمـــة العـــود والـــناى الرخـــيم إذا تألفـــاً بـــين ألحـــان مـــن الهـــزج
وفـــى مســـارح غـــزلان الخمـــائل[١] فـــى بـــرد الأصـائل[٢] والأصـباح[٣] فى البلج[٤]
وفـــى مســـاقط أنـــداء الغمـــام عـــلى بســـاط نـــور مـــن الأزهـــار منتســـج
وفـــى مســـاحب أذيـــال النســـيم إذا أهـــدى إلى ســـحيراً[٥] أطيـــب الأرج[٦]
وفـــى التـــنامى ثغـــر الكـــأس مرتشـــفاً ريـــق المدامـــة فـــى مســـتنزه فـــرج[٧]
لم أدر مـــا غـــربة الأوطـــان وهـــو معـــى وخاطـــرى أيـــن كـــنا غـــير مـــنزعج
فـــالدار دارى وحـــبى حاضـــر ومـــتى بـــدا فمـنعرج[٨] الجـرعاء[٩] منعرجى[١٠]

(١) الخمائل: جمع خميلة ـ الحدائق
(٢) برد الأصائل ـ برد أخر النهار
(٣) الإصباح: جمع صبح
(٤) البلج: وقت الصباح قبل طلوع الشمس
(٥) سحير: وقت السحر نصف الليل
(٦) الأرج: الريح
(٧) فرج: متسع
(٨) مكان: صعود الوادى وانعطافه
(٩) الجرعاء: الرملة
(١٠) منعرج: محا صعودى

شرح الرسالة

للشيخ عبد الغنى النابلسى

قال الشيخ أرسلان قدس الله سره : العزيز فى هذا الشأن (كلك) أيها الإنسان فى ذاتك وصفاتك وأسمائك وأفعالك وأحكامك على حسب ما ذكرناه . (شرك) أى ذو شرك مبالغة كرجل عدل . (خفى) عنك غير ظاهر لك فان قلت هذا الخطاب يشمل الأنبياء عليهم السلام ومن عداهم والشرك ممتنع فى حقهم ولو كان خفياً قلت إنما يشمل كل مستقل بالوجود دون ربه قائم فى مقام الفرق وواقف فيه دون الجمع على ربه والأنبياء عليهم السلام منزهون عن ذلك وإن كانوا فى الفرق الثانى فإن الفرق الثانى جمع وزيادة فلا يشبه الفرق الأول إلا فى تعين الحضرات فقط والدليل على وجود الشرك الخفى من الكتاب والسنة أما الكتاب فقوله تعالى ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾(يوسف:١٠٦) . فقد أثبت لهم الشرك فى حال إيمانهم بالله تعالى فيكون شركاً خفياً عنهم لا يشعرون به وهذا فى الأكثر وأما فى الأقل فهم يؤمنون بالله وهم موحدون وأما السنة فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: (الشرك فى أمتى أخفى من دبيب النمل على الصفاة) . وهو صريح فى الشرك الخفى ومنشأ هذا الشرك الخفى الوهم والخيال الفاسدان فيتوهم شيئاً موجوداً بوجود مستقل غير وجود الله تعالى ولا شئ موجود غير وجود الله تعالى قال الله تعالى ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾(القصص:٨٨) . وقال تعالى ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴾(الرحمن:٢٦ ، ٢٧) ومن تحقق بقوله تعالى ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾(طه:٥) . من غير تشبيه ولا تأويل فهم ذلك حق الفهم ومنشأ هذا الوهم أن الإنسان إذا ارتفع عن قلبه قناع الطفولية وأبتدأ إدراكه فى عالم الدنيا يكون عقله قاصراً ومعرفته ناقصة فعند ذلك تنطبع فى مرآة خياله صور الأشياء بسبب كثرة ورودها على خاطره حتى يعتادها عقله ويضبطها خياله ويتحققها فى وهمه فإذا كبر وبلغ لا يكاد يصدق بوجود شئ مما وراء ذلك على غير جنس ما علمه وهو لا يدرى أن هذه الأشياء التى أدركها كلها آثار الحقائق العلمية وظلال الوجودات الأزلية بمنزلة السراب الذى يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه أو بمنزلة الخيالات المنطبعة فى المرآة يظنها الطفل الصغير حقائق موجودة وإنما الحقائق الموجودة ما يقابلها والله بصير بالعباد فإن قلت أن هذا الكلام يقتضى أن وجود الأشياء كلها أوهام وخيالات وهو مذهب باطل قلت مرادنا أن وجود

الأشياء أوهام وخيالات بالنسبة إلى تسميتها أشياء حقيقية مستقلة كما قال النبى ﷺ أصدق كلمة قالها الشاعر قول لبيد . ألا كل شئ ما خلا الله باطل . يعنى بالنسبة إلى الله والله هو الحق بالنسبة لكل شئ ومع قطع النظر عن الله تعالى فكل شئ حق لأنه خلق بالحق قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ (الحجر: ٨٥) .

والمذهب الباطل كون وجود الأشياء أوهاماً وخيالات بالنسبة إلى الأشياء فى أنفسها فإنه جحود لوجود الحق تعالى الذى قامت به الأشياء وهو مذهب القوم الضالين المضلين ثم ان الشيخ ﷺ حيث ذكر الداء أحتاج أن يذكر الدواء لأنه طبيب الأرواح فقال (ولا يبين) أى لا يظهر (لك) أيها المشرك هذا الشرك الخفى (توحيدك) الذى أنت فيه نظير غيرك من جميع العالم وهو التوحيد الفطرى الروحانى الصحيح المعتبر فإن جميع بنى آدم عارفهم وجاهلهم كلهم موحدون كاملون لأنهم أولاد نبى وأولاد النبى كاملون مثله ولكن علمهم بأنفسهم وبغيرهم متفاوت فمنهم من يعرف نفسه وغيره معرفة تامة فهو النبى والكامل منهم من يعرف نفسه وغيره أدنى من ذلك وهو الصديق والولى منهم أدنى من ذلك وهم الصالحون والعلماء ومنهم من لا يعرف نفسه ولا غيره أبداً وهم الجاهلون الغافلون وأن زعموا أنهم يعرفون نفوسهم وغيرهم فإن معرفتهم معرفة وهمية لا حقيقية لأنها تابعة لمقتضى حواسهم وعقولهم لا تابعة لنفوسهم على ما هى عليه ولغيرهم على ما هو عليه وتكليفهم من الله تعالى على حسب علمهم بأنفسهم وبغيرهم قال الله تعالى ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا ﴾ (الطلاق: ٧) وقال أيضاً فى آية أخرى ﴿ إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦) . (إلا إذا خرجت) أى انفصلت . (عنك) أى عن ذاتك وصفاتك وأفعالك وأسمائك وأحكامك . بحيث تحققت بتوحيده تعالى الذاتى والصفاتى والأسمائى والأحكامى ورجعت ذاتك إلى ظهور ذاته تعالى لك ظهوراً غير مقيد غير مانع من الإطلاق بالنسبة إليها ورجعت صفاتك إلى صفاته كذلك وأفعالك إلى أفعاله وأسماؤك إلى أسمائه وأحكامك إلى أحكامه فكان هو أنت فى حضرة إطلاقه واستغنائه عنك وأنت لست هو فى حضرة تقييدك واعتقادك إليه وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ (الذريات: ٥٠) . وقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ (البقرة: ٦٧) .

وفى الحديث (موتوا قبل أن تموتوا) . فإن قلت الشيخ ﷺ قيد الخروج بقوله عنك ولم يذكر الخروج عن بقية الأغيار مع أنه شرط فى ذلك أيضاً قلت الخروج عن الأغيار سابق على الخروج عن النفس بحسب ضرورة الوجدان كما أن زمان الشباب سابق على زمان الكهولة فإن قلت للغلام حتى تصير كهلا معناه حتى تصير شاباً ثم تصير كهلا وههنا الخروج عن

الأغيار رتبة أولى والخروج عن النفس رتبة ثانية فإن ذكرت الثانية كانت الأولى مفهومة فى ضمنها فلا حاجة إلى ذكرها وبيان هذا أن نفس الإنسان محجوبة عنه بالأغيار فإذا خرج عن الأغيار أرتفع الحجاب عن نفسه فعرف نفسه فإذا عرفها خرج عنها فعرف ربه كما سيشير إليه الشيخ ﷺ فى آخر الرسالة بأفصح مقالة ثم لما كان ظهور التوحيد الفطرى الذى فيك لك موقوفاً على خروجك عنك كما ذكرنا كان دوام هذا الظهور لك موقوفا على إخلاصك فى هذا الخروج أيضاً ولهذا قال الشيخ ﷺ **(فكلما أخلصت)** أى فى خروجك عنك بأن خرجت عن هذا الخروج لأنه عندك أنه منك وإن كان فى الحقيقة ليس منك بل أنت وما منك من الله تعالى قال الله تعالى ﴿ **قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ** ﴾ (النساء:٧٨) واليه الإشارة بقوله ﴿ **وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ** ﴾ (العلق:١٩) . فالسجود هو لحوق نفسك بأرضها التى خلقت منها وهى العدم والاقتراب هو السجود الثانى وهو لحوق فوق هذا اللحوق الذى ظهر لك بالعدم أيضاً **(يكشف)** بالبناء للمفعول أى يكشف الله تعالى **(لك)** بأن يظهر فيك وتجده فى نفسك المعدومة وهذا الانكشاف ليس كانكشاف الأشياء المغطاة قال العفيف التلمسانى ﷺ من أبيات:

جميع خطاب أهل الله معنى ... بلا حرف وكشف دون كشف

أى هو كشف لكنه ليس كما يكشف الغطاء عن الآنية أو الستر عن الباب بل هو أمر إذا ظهر يرى العبد أن ذلك لم يكن مستتراً بشئ وإنما الإدراك كان ضعيفا عن الوصول إليه فقواه الحق تعالى فأدرك ما كان ظاهراً **(أنه)** أى الشأن والذى أنكشف لك **(هو)** أى الله ﷻ الموجود وحده فقط بالوجود القديم الخاص به **(لا أنت)** أى لا وجود لك بالكلية بل أنت عدم محض حينئذ وأنت عند ذلك على ما كنت عليه قبل ذلك من غير تغيير إلا أن بصيرتك قويت فأدركت ما لم تكن تدرك من قبل كمن رأى شبحاً من بعيد فأمعن النظر إليه فتحقق أنه إنسان ثم أمعن النظر فيه فتحقق أنه فلان حتى شرع فى تدبير كلمات له يقولها عند اجتماعه به ثم سار إلى نحوه وأشرف عليه فإذا هو صخر من الحجارة فإن الإنسان الذى كان فى بصره قد زال ولم يكن قبل ذلك مع أنه كان محققاً له فقد فنى الإنسان الذى هو فلان وبطلت العبارات التى دبرها وظهر الصخر من الحجر الذى لم يكن . وهذا معنى قولهم حتى يفنى ما لم يكن ويبقى ما لم يزل وقال تعالى: ﴿ **مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى** ﴾ (النجم:١٧) .

وهذا نبينا ﷺ حيث رأى ربه وقد زاغ بصر غيره وطغى فلم ير ربه حتى يذهب الزيغ والطغيان فيراه المؤمنون فى دار الجنان وإذا انجلى غبار الأغيار يظهر لك نور جميع الأنوار وهو الله الواحد القهار قال تعالى: ﴿ **فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً** ﴾ (العاديات:٤) . فقد أشار تعالى إلى أن العاديات

وهى الروحانيات الموكلة بظهور الجسمانيات أهاجت الغبار وأثارته بينها فكان عالم الأجسام والصور بالقرآن القديم وهو الذكر الحكيم وهو الله الذى لا إله إلا هو العلى العظيم وأعلم أن كل ممكن من هذه الحوادث متصف بالوجود كما أن الحق تعالى متصف بالوجود ومفهوم الوجود واحد لا يختلف إلا باللوازم والاعتبارات فهو فى القديم قديم وفى الحادث حادث كما أنه فى الإنسان إنسان وفى الجماد جماد والوجود نفس الماهية الموصوفة به على التحقيق وهو فى القديم مطلق وفى الحادث مقيد ولا كلام لنا فى المطلق لأن الكلام فيه يقيده ولو كلاماً فى إطلاقه فإن قولنا عنه أنه مطلق قيد له فهو مطلق عن الإطلاق وأما الكلام فى الوجود المقيد فهل ماهيته أعراض فيه أو هو عرض فيها يصح القولان وعلى كل حال لا يخرج عن كونه عينها اذ لا زائد عليه وأن كثر وتعدد فالماهيات أعراض والوجود عرض وأى قام بالآخر لزم قيام العرض بالعرض وليس بممتنع فى القدرة الإلهية ولزوم التسلسل بذلك أمكاناً لا يقتضى وجوده عياناً ولاشك أن العرض يتجدد فى كل زمان ويتبدل فى كل أوان والوجود الحادث العرض أثر من آثار الوجود القديم قائم بالوجود القديم ولكن ليس مثل قيام العرض بالجسم بحيث تحل فيه كالعلم بالعالم والبياض بالقرطاس وقد خلق الله تعالى ذلك مثالا له مضروبا لقيام الحوادث به تعالى .

قال تعالى ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (العنكبوت:٤٣) فإن كنت من العالمين فاعقل المثال . واعلم أنه من أى وجه ضرب مثالا ولا تقسه على المثل له وتأمل الأنوار المنتشرة فى زوايا البيت ليلا فإنها آثار نور المصباح المتقد فيه وليس ضعف الأنوار المنتشرة مثل قوة نور اللهبة فى المصباح بل لا نسبة بين النور الذى هو أثر والنور الذى هو مؤثر وإياك أن تفهم من هذا المثال أنه مثل القديم والحادث فإن نور اللهبة والأنوار المنتشرة ليلا فى البيت جميع ذلك حادث والقديم منزه عن مشابهة ذلك .

ولكن جميع العلوم الحادثة اعتبارات لأولى اللباب ليعرف بها السالك من وجه الباب (فتستغفر) أى تطلب مغفرة الله تعالى ومسامحته (منك) أى من الذنب العظيم الذى هو أنت من قبيل قول الشاعر:

فإن قلت ما ذنبى إليك أجبتنى وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

وسبب هذا الاستغفار بقية بقيت عندك من بعض الآثار وفى الحديث قال النبى ﷺ: (إنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة) . وفى رواية مائة مرة واستغفار النبى ﷺ ليس من غين الأغيار بل من غين الأنوار لأنه دائم الترقى فكلما رقى إلى رتبة فى القرب الإلهى وجد الرتبة التى كان فيها قبل ذلك غيناً وحجاباً فيستغفر الله منها قال تعالى

لـه ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ (طه:١١٤) . والوارثـون لـه ﷺ لهـم نصيب من ذلك كما هو مأخوذ من إشارة قوله تعالى ﴿ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ (الأحزاب:١٣) .

فـإن قلت قول الشيخ ﷺ لا أنت معناه التحقيق بعدم الوجود وقوله فتستغفر منك صريح فـى الوجـود لثبوت المستغفر قلت والأمر كذلك لأن هذه رتبة الكاملين الذين ينظرون بعينين لا بعـين واحـدة فـإن مـن تحقـق بعـدم وجـوده مـع الله تعـالى فقط فهو ناقص المعرفة ومن تحقق بوجـوده مـع الله تعالى فقط فهو أنقص منه والكامل فى المعرفة من جمع بين المقامين ووقف فى الحقـيقة الـبرزخية وذلـك لأنه لابد من حق وخلق إذ لولا الحق ما عرف الخلق ولولا الخلق ما عـرف الحـق ومـن أنكـر واحداً منهما فهو جاهل ومع جهله كافر والكامل متحقق بعدم وجوده ومـن أنكـر واحـداً منهما فهو جاهل ومع جهله كافر والكامل متحقق بعدم وجوده مع الله تعالى إعطـاء للربوبية حقها ومتحقق بوجوده مع الله تعالى إعطاء للعبودية حقها فيعد وجوده ذنباً فى تحققـه الأول ويسـتغفر مـنه وفـى تحققـه الثانى ويلزم من استغفاره منه عوده إليه فيستغفر منه وهكذا قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ (البقرة:٢٢٢) . والذنب دائم والتوبة دائمة والعبودية موضـع الذنـب والربوبـية موضـع الـتوبة ومـراعاة الطـرفين مطلوب الخلق فى حضرة علم الحق والحـق فى حضرة علم الخلق فالحق حق والخلق خلق وحق والحق الحق فيه باطن والخلق فيه ظاهـر والخلـق الخلـق فـيه ظاهـر والحق فيه باطن وهذه هى المضاهاة الإلهية المشار إليها بقوله ﷺ (إن الله خلـق آدم عـلى صـورته) . وفـى روايـة عـلى صورة الرحمن **(وكلما وحدت)** أى تحققـت فـى هـذا الانكشـاف المذكـور أنـه هـو لا أنـت **(بـان)** أى ظهر وأتضح **(لك الشرك)** . المعهـود وهـو الخفـى الـذى كان فيك وأنت غافل عنه **(فتجدد له)** . ﷺ بسبب ذلك **(فى كل ساعة)** . أى زمـان يسـير **(ووقت)** . وهو أعم من الساعة لانطلاقه على الزمان الكثير بخلاف الساعة لغة **(توحيداً)** أى تحققا أنه هو لا أنت **(إيماناً)** أى تصديقاً بحقية أنه هو لا أنت .

فالمـراد بالتوحـيد ظهور صفته الوحدانية للعبد حتى ينمحق كله فيها ولا يبقى له أثر إلا مجـرد التصـديق القلـبى بـأن ذلـك حـق والإيمان هو التصديق بحقيقة ذلك والاعتراف به والإذعـان لـه فالتوحـيد المذكـور اضـطرارى لا تصـرف للعـبد فـيه والإيمـان اخـتيارى يمكنه التصرف فيه لذلك قال الله تعالى ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ (يوسف:١٠٦) . وذلـك لأن الإيمان اختيارى لهم فأمكنهم الآتيان به وأما التوحيد فلكونه اضطرارياً لم يمكنهم الآتـيان بـه وإنمـا أمكـن بعضهم عناية من الله تعالى وهذا التوحيد المذكور هو التوحيد القلبى المعتـبر وأمـا التوحـيد اللسـانى الذى أعتبره الشرع من حيث الظاهر للحكم الدنيوى كتوحيد

المنافق فهو كثير وليس المراد هنا بالتوحيد ذلك أصلا ولا يذهب عليك أن التوحيد اضطرارى كما ذكرنا فكيف يمكن تجديده لأنا نقول تجديده بمعطاة أسبابه المؤدية إليه من معرفة النفس والكون .

وفى الجمع بين التوحيد والإيمان إشارة إلى أن كلا منهما لا يعتبر بدون الآخر على المعنى الذى ذكرناه إذ من عنده توحيد ولا تصديق فهو هالك ومن عنده تصديق بحقيقة ذلك ولا توحيد لَه بالمعنى المذكور فهو غير سالك فان قلت قال الشيخ ﷺ فيما سبق فتستغفر منك وقال هنا فتجدد لَه توحيداً وإيماناً ولم يذكر الاستغفار .

قلت : لأن فى الأول يظهر لك أنه هو لا أنت فيكون ذنبك الذى هو أنت ذنباً سبق منك لا أنت فيه فتستغفر منه . وأما هنا فقد بان لك الشرك فلو استغفرت منه ألف مرة وهو مقيم فيك ما أفادك ذلك شيئاً بل يتعين عليك إزالته بأن تجدد توحيداً وإيماناً فان التوبة من كل ذنب بحسب ذلك الذنب .

وفى قول الشيخ ﷺ فكلما أخلصت يكشف لك وكلما وحدت بأن لك إشارة إلى أن هذا الكشف وهذا البيان يتجددان بتجدد الإخلاص والتوحيد ويدوم الترقى فيهما بدوامهما فربما كان التوحيد كشفاً لقوم وهو حجاب لقوم آخرين بل هو عندهم إلحاد فيحتاجون إلى الخروج عنه كما أشار إلى ذلك الإمام الهروى فى آخر كتابه (منازل السائرين) بقولَه :

ما وحد الواحد من واحد إذ كل من وحده جاحد
توحيد من ينطق عن نعته عارية أبطلها الواحد
توحيده إياه توحيد ونعت من ينعته لاحد

فإن توحيد الموحد يقتضى وجود موحد وموحد وتوحيده وهى ثلاثة أشياء فى نفس كل موحد وإن كان يجهلها ومع التثليث أين التوحيد ونعت من ينعته إلحاد لأنه إنما ينعته بما فهم من نعوته الواردة عنه تعالى والذى فهمه منها بعيد عن حقيقة المراد بها لأنها قديمة وما فهمه حادث فقد عدل عن حقيقة النعوت القديمة إلى المعانى الحادثة التى فهمها والعدول عن ذلك إلحاد (وكلما خرجت) أى أعرضت (عنهم) أى عن جميع الأغيار ولم يتقدم لهم ذكر لعدم إرادة أغيار مخصوصين وغلب جماعة الذكور على غيرهم لصعوبة الخروج عنهم بالنسبة إلى غيرهم لكمال الاحتياج إليهم فى المهمات ومعنى هذا الخروج أن تجد نفسك خارجة لتحققها بمعرفة من خرجت عنه لأنه عدم صرف لابس ثوب الوجود المستعار وتخيل ذلك فى الذهن وإتقانه بالحفظ حجاب لَه على الحقيقة (زاد) أى كثر نورا وإشراقا (إيمانك) أى

تصديقك بالله تعالى وإذعانك له وذلك لأن التصديق بالشيء يزداد إذا أقتصر النظر عليه وآيات الله تعالى فى الآفاق وفى الأنفس إذا تبصر فيها المؤمن أزداد إيمانه فصار شهوداً للغيب ومعاينة له من وراء أستار الجلال والكبرياء قال تعالى ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ (الفتح: ٤) .

فإيمانهم الأول كان تصديقاً والثانى شهوداً ولا شك أن هذا الشهود زيادة على التصديق (وكلما خرجت) أى انفصلت (عنك) أى عن نفسك زيادة على خروجك عن سائر الأغيار فإن الخروج عن الغير يحتاج إلى ممتاز عن ذلك الغير وإلى خارج عنه والممتاز والخارج هو النفس فلابد منها فى مقام الإيمان . وأن كان شهوداً ومعاينة فإن حجاب الغيب مسدول وستر العظمة لا يزول فإذا خرج عن نفسه أيضاً ممتاز ولا خارج فزال الحجاب وأنقشع الستر وانجاب فعند ذلك (قوى) أى أشتد (يقينك) بالله تعالى حتى صرت عالماً ربانياً قال تعالى ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (آل عمران: ٧٩) .

والربانى منسوب إلى الرب ولولا خروجه عن النفس ما نسب إلى الرب وغير الربانى النفسانى وهو المنسوب إلى نفسه لقيامه بها لا بربه يعنى فى زعمه والا فإن الكل قائمون بربهم والمراد باليقين سكون القلب إلى الله تعالى وعدم تحركه إليه لتحققه به وإنما قال فى الإيمان زاد وفى اليقين قوى لأنه ذكر الخروج عنهم فى الإيمان وهم كثيرون والكثرة تناسبها الزيادة وذكر الخروج عن النفس مع اليقين . والنفس واحدة فيناسبها القوة .

ثم أستشعر الشيخ ﷺ بموانع تحصل السالك فى طريق المعرفة ترجع به عن الجمع إلى الفرق فنبه عليها بقوله (يا أسير) أى مأسور فعيل بمعنى مفعول بنى للمبالغة (الشهوات) المباحة فضلا عن المحرمة وهى أنواع كثيرة شهوة مأكل ومشرب وملبس ومنكح ومسكن ومركب ومال وولد ودنيا وجاه وخدم وعلم وصاحب ونزهة إلى غير ذلك وإنما كان أسيرها لميله إليها وأشتغاله بها ورغبته فيها دون ربه وقدمها فى الذكر لأنها أدنى حالة وأقوى مانع وأكثر وجوداً ولأنها أصل فى جميع ما بعدها فإن قلت الأنبياء عليهم السلام كانوا يستعملون الشهوات المباحة على اختلاف أنواعها وسليمان عليه السلام قال ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾(ص: ٣٥) فقد طلب الجاه العظيم فى الدنيا وحصل له ذلك قلت استعمال الأنبياء عليهم السلام للشهوات استعمال روحانى فهى لذائذ لا شهوات واستعمال غيرهم لها استعمال نفسانى فلذلك سميت شهوات وإذا كان الولى يصل إلى مرتبة تصير نفسه فيها روحاً وتصير شهواته لذة روحانية ويعود شغله الباطنى بالأغيار علماً وفهماً فى الله تعالى فما بالك بالأنبياء عليهم السلام وهم أكمل خلق الله تعالى .

والحاصل أن المنهمك فى الشهوات لَه روح وله نفس وتلك الشهوات التى أنهمك فيها لهـا بـاطن ولهـا ظاهـر فالـروح تـنهمك فـى الباطن والنفس تنهمك فى الظاهر فإذا كان للعبد ظاهـرياً محضـاً غـافلا عن الباطن كان انهماكه انهماك شهوات نفسية فى أمر دنى زائل وهو الظاهـر وإذا كـان باطنـياً عارفـاً كانـت روحـه منهمكة فى أمر عظيم باق لا يفنى وذلك الأمر الباطنى العظيم من لازعه ذلك الظاهر فلابد منه .

ولهـذا كانـت الملائكة لا يزدادون ولا ينقصون فى مقاماتهم لعدم معاطاتهم لهذه الأمور العظـيمة الباطنـية الـتى ظاهـرها هـذه الشـهوات الجسمانية لأنها أسرار بين الله تعالى وبين الأرواح ولا تظهـر للنفوس كما هى بل تظهر على خلاف ما هى عليه فهى مذمومة لذلك ومن لازم ظهور الأمر على خلاف ما هو عليه زواله وفناؤه من حيث هو خلاف ما هو عليه .

(والعـبادات) ثـنى بهـا لأنها أصرح فى ذلك مما بعدها وهى جمع عبادة أسم لكل ما يـتقرب بـه العـبد إلى الله تعالى من أنواع الطاعات الظاهرة كأفعال الجوارح والباطنة كالإيمان والتوحـيد والمعـرفة وإنمـا كـان أسـيرها لمحبـته لهـا لا لله تعالى ونظره إليها لا إلى الله تعالى واشتغاله بها لا بالله تعالى . بل هو غائب عن الله تعالى الذى هو غائب عنه لعدم حياته منه فالعـبادات الـتى هـذا شـأنها عنده ذنوب لَه لا عبادات فإن قلت كيف يصح هذا مع إن من العـبادات معـرفة الله تعالى وشهوده وفى ذلك لذة لا تعادلها لذة وهى المسماة بحلاوة الإيمان والتوحـيد فكـيف تكـون مذمومـة قلت هـى لـذة روح لا لذة نفس ولذائذ الروح كلها محمودة لأنهـا مقصـودة للـروح من حيث ظهور الحق تعالى بها لا من حيث هى . ولذائذ النفس كلها مذمومـة لأنهـا مقصـودة للـنفس مـن حيث هى لا من حيث الحق تعالى الظاهر بها وإلى ذلك يشير الشيخ شرف الدين بن الفارض قدس الله سره بقولَه :

هـبى قـبل يفـنى الحـب منى بقية ... أراك بهــــا لى نظـــرة المتلفـــت
ومـنى على سمعى بلن إن منعت أن ... أراك فمـــن قـــبل لغـــيرى لـــذت

يعـنى لذة لن ترانى لموسى عليه السلام من حيث ظهور الحق تعالى لَه بها ثم أعقب ذلك يذكر ما يخفى على السالك من موانع الأحوال ولذلك صرح فيه بلفظ أسير حيث قال (يا أسير) أى مأسور .

(المقامـات) جمع مقام كحمامات جمع حمام وأصطبلات جمع أصطبل مجموع بالألف الـتاء وإن كـان مذكراً وهو أعماله المستمرة التى يدركها السالك ويجد بسببها فى نفسه نشاطاً إلى تلقـى المـدد من الجلب الأقدس لم يجده قبل ذلك ولم يذكر الأحوال لأنها فهمت بالطريق

الأولى وهي غير مستمرة بخلاف المقامات وإنما كان أسيرها لوقوفه عندها لا عند ربه سبحانه وطلبه لها لا لربه واشتغاله بها لا بربه وهذا شأن من يطلبها من حيث هي مقامات لا من حيث هي ظهور الحق ﷻ له فيها .

(والمكاشفات) جمع مكاشفة وهي بلوغ ما وراء حجاب العلم من المشاهدة الإلهية احترازاً عن المكاشفة الصورية وهي كشف الصور مثل الأخبار بوقت قدوم غائب والأخبار بما وراء الجدار مما لم يشاهد بالحس ونحو ذلك وتلك المكاشفة ليست في طريق الله تعالى بل هي قاطعة عنه ولذلك لم يخص بها ملة دون أخرى كذا حققه العارف التلمساني عفيف الدين قدس الله سره في شرح منازل السائرين الهروي رحمه الله تعالى وإنما كان أسيرها لأنها من جملة الأغيار فالوقوف عندها قاطع عن الوصول إلى معرفة نور الأنوار قال تعالى ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ (النجم: ٤٢) . ولا نهاية له تعالى فلا نهاية للسير إليه فالعالم سائر من الأزل إلى الأبد متقلب في الأطوار العلية قبل الأطوار الوجودية ومن كلام بعضهم لو رفعت إلى ذرة الأكوان وترقيت إلى حيث لا مكان ثم اغتررت بشيء طرفة عين فلست من أولي اللباب ومما يحكى عن أبي الحسن الدينوري ﷺ إنه وقف ليلة كاملة بعد إحرامه بالصلاة على رؤس أصابعه فسأله من حضره عن سبب ذلك فقال طافت روحي السموات والأرضين والجنة والنار وقيل لي هل أعجبك شئ في ملكي فقلت لا فقال لي أنت حينئذ عبدي حقاً وقال ابن الفارض ﷺ:

قال لي حسن كل شئ تجلى ... بي تملى فقلت قصدي وراك

من قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ (البروج: ٢٠) . (أنت) يا أيها الأسير لهذه الأربعة أشياء الشهوات والعبادات والمقامات والمكاشفات المرتبة على سبيل الترقي (مغرور) بسبب دخولك تحت أسر هذه الأغيار فلا تظن نفسك من جملة المقربين الأخيار ما دمت ملتفتاً إلى هذه الأغيار المتصورة في صور القرب ومشتغلا عن مؤثرها بالآثار (أنت مشتغل بك) أي بحظوظ نفسك الظاهرة كالشهوات والخفية كالعبادات والمقامات والمكاشفات (عنه) أي عن من تزعم أنك تريد التقرب إليه والإقبال عليه وهو الله ﷻ (أين الاشتغال) المعهود لك يعني اشتغالك الذي تزعم أنه (به) أي بالله ﷻ (عنك) أي عن نفسك فضلا عن سائر الأغيار فإنك كاذب فيه إذ لو كنت صادقا ما ألتفت إلى شهوة أو عبادة ولا مقام ولا مكاشفة ولأفردت القصد إليه تعالى وحده دون جميع ما عداه ولجردت الهمة والعزم فيه تعالى وتركت كل ما سواه ثم تركت تركك لكل ما سواه ولم تلتفت على ذلك الترك لأنه غيره تعالى وتركت الالتفات إلى همتك وعزمك إليه تعالى لأن ذلك كله أغيار له تعالى فمتى أقبلت على شئ من ذلك فأنت

كاذب فى دعوى اقبالك على الله تعالى .

ونقل ابن عطاء الله السكندرى فى التنوير فى إسقاط التدبير عن شيخه أبى العباس المرسى ﷺ أنه كان يقول لن يصل الولى إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى الله تعالى .

ثم قال ﷺ تنهيضاً للسالك باستبعاد ما هنالك (وهو) أى من أنت مغرور بغيره مشتغل بنفسك عنه والواو للحال (عز) أن يكون حضوره كحضور خلقه فى مكان وزمان وهو عزيز عن أن يغتر أحد بغيره (وجل) عن أن يكون نظره كنظر خلقه بجارحة أو مسافة أو جهة أو هو جليل عن أن يشتغل عنه أحد (حاضر) أى موجود رقيب غير غائب حتى تغتر بغيره (ناظر) أى مبصر لكائناته كلها لا يخفى عليه شئ منها فكيف تشتغل عنه بنفسك ثم أكد ذلك بقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ). أيها العباد المخلوقون بصفته القيومية الثابتة لذاته العلية لا أنتم معه كما سنبينه (أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) . أى وجدتم (فى) عالم (الدنيا) التى وجودكم المخلوق فيها له نهاية (وفى) عالم (الآخرة) التى وجودكم المخلوق فيها لا نهاية له وأعلم أن المعية صفة قديمة من صفات الحق تعالى وهى معيته لكل مخلوق من جميع مخلوقاته بحيث لو لم يكن الحق تعالى مع ذلك المخلوق أى مخلوق كان ما تكون ذلك المخلوق ولا وجد ولا ظهرت له عين وحيث كان كل مخلوق فى عالم الخالق وعلم الخالق صفة من صفات الخالق فقد تصور الخالق من حيث صفته العلمية بصورة كل مخلوق لا من حيث ذاته ثم ظهرت صورة المخلوقات التى فى الصفة العلمية مترتبة على ما سبقت به الإرادة الأزلية فهى العالم فلولا معيته تعالى بذاته وصفاته فى حضرته العلمية لكل شئ ما كان وجد شئ فإن كل شئ هالك من حيث هو شئ لا وجود له مطلقا إلا وجهه تعالى وهو توجهه تعالى متصوراً من حضرته العلمية بصورة ذلك الشيء المعدوم الذى لا يصح له وجود من نفسه أبداً مع كل شئ بصورة ذلك الشيء وليس شئ مع الله تعالى مطلقاً .

فإن قلت كيف يتصور القديم المطلق فى صورة مقيدة ولو فى حضرة علمه قلت تصوره فى حضرة العلم أمر من ضروريات العلم ولكن تصور فى مطلق عن الصورة ثم ذلك المطلق عن الصورة فى العلم عين العلم كما أن علمه تعالى بزيد مثلا متضمن لعلمه بجميع ما يتصوره زيد فى نفسه فما يتصوره زيد فى نفسه يتصوره الحق تعالى بعلمه المطلق ولكن فى ضمن العلم بزيد فأول ما يعلم الله تعالى نور محمد ﷺ مطلقاً عن جميع الصور ثم يعلم جميع الصور منه فعلم الله تعالى مطلق عن جميع قيود الصور ومعلومه تعالى وهو نور محمد ﷺ مطلق أيضاً عن جميع قيود الصور من حيث هو معلومة تعالى وأما من حيث هو نور محمد ﷺ فهو مقيد

بجميع الصور ما كان منها وما يكون ولهذا ورد فى الحديث أن أول ما خلق الله تعالى نور محمد ﷺ ثم خلق منه كل شئ فما ثم إلا الله تعالى متجليا على نور محمد ﷺ والنور حائر فيه تعالى وقد ألبسه الله تعالى حلة صفاته وأسمائه فهو يصور هذا المتجلى عليه فى صور لا نهاية له ثم بنفيها عنه تعالى وهو حقيقة التسبيح الذى قال تعالى ﴿ تُسَبِّحُ لَه السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ (الإسراء: ٤٤) . فذلك تسبيح ما هو معدوم لوجوده فيما هو وجود عين ذلك الموجود وهو نور محمد ﷺ المطلق كما ذكرنا معدوم لوجوده تعالى المطلق فى رتبة علمه تعالى به فهو الله فى السموات وفى الأرض ولا سموات ولا أرض من حيث هى سموات وأرض بل الله الذى لا إله إلا هو المنزه عن كل تشبيه وتكييف المقدس عن كل تمثيل وتعريف وتوصيف والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

(فإذا كنت) أى وجدت أيها السالك بأن صور لك الحق تعالى فى نفسك أنك موجود (معه) ﷺ وإلا ففى حقيقة الأمر لا وجود لك معه أصلا بل ما أظهره لك مما تسميه أنت أنما ذلك هو متصور بالنور المطلق الذى علمه الله تعالى على إطلاقه ثم قيده بالصور كما أن الصندوق والباب والكرسى هى ذات الخشب لا زائد عليها والصندوق والباب والكرسى بعد زوال الحقيقة الخشبية عدم صرف فلا وجود إلا الخشب إن وجد الصندوق والباب والكرسى وإن لم يوجدوا ولا تظن حيث ذكرنا لك هذا المثال أن الحق تعالى للعالم كالخشب لهذه الأشياء المصنوعة بل نور محمد ﷺ كذلك فإذا وصلت إلى الحقيقة المحمدية وصلت إلى الله تعالى فلا تحتاج أحداً يعلمك حينئذ (حجبك) أى ستر حقيقتك المتصورة من النور المحمدى بالتوجه القديم التى هى حقيقة القديم من حيث حضرته العلمية كما ذكرنا (عنك) فتصير غافلا محجوباً زائغاً تائها تذهب فى معرفته كل مذهب ولا تهتدى إليه تعالى مع أنه معك وهو أقرب إليك منك .

(وإذا كنت) أى وجدت (معك) أى مع حقيقتك المتصورة من النور المحمدى بالتوجه القديم التى هى حقيقة القديم من حيث حضرته العلمية كما يشير إلى ذلك قوله تعالى ﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ (الاسراء: ١٥) . وفى الحديث من عرف نفسه فقد عرف ربه .وقال تعالى ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾(الرعد: ٣٣) (أستعبدك) تعالى أى جعلك عبداً (لَه) تعالى ولا يتركك معك فى حقيقته العلمية لأنها تعطيل لمقام العبودية فأنت حينئذ عبد صرف لرب صرف وهو مقام محمدى شريف قال تعالى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ (الاسراء:١) ، وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ﴾ (الجن:١٩) ، ولله در القائل حيث قال:

لا تدعني إلا بيا عبدها — فإنه أشرف أسمائي

ويمكن أن تقول فى معنى هذا الكلام إذا كنت معه بأن كنت ناظراً إليه تعالى مشتغلا به تعالى عن نفسك حجبك عن نفسك فلا تجد نفسك معه تعالى ويبقى هو تعالى ولا أنت . وهذا مقام الجمع وإذا كنت معك أى مع نفسك لا معه تعالى بل كنت معرضا عنه تعالى مشتغلا بنفسك عن الاشتغال به وهو مقام الفرق أستعبدك له أى جعلك عبداً له تعالى وأتعبك بأنواع التكاليف الشاقة .

ثم أخذ الشيخ ﷺ بين الإيمان واليقين حيث وقعا فى كلامه السابق فقال : (الإيمان) أى التصديق الكامل بالله تعالى والإذعان له والانقياد إليه على أتم الوجوه إنما هو (خروجك) أيها المريد أى إعراضك بالكلية إعراضاً وجدانياً لا تخيلياً لأن النفس تخيل للعبد ما ليس موجوداً فيه أنه موجود ويكون على خلاف ذلك وعلامة صدقها أن لا تجد فى البصيرة غير الوجود الحق ﷻ (عنهم) أى عن جميع الأغيار وغلب جماعة الذكور كما ذكرنا فيما سبق وإنما كان الإيمان الكامل خروجك عن جميع الأغيار لأن التصديق بالحقيقة الظاهرة بصور جميع الأغيار باعتبار الحضرة العلمية كما ذكرنا لا يمكن على ما هى عليه إلا بعد ذهاب ما التبست به من جميع صور الأغيار فإذا انمحت عن عين بصيرتك سائر الصور ظهرت لك الحقيقة على ما هى عليه فوجدت الإيمان بهذا حينئذ كما قال الشيخ عبد الوهاب السودى اليمنى قدس الله سره:

لو تلاشت عنهم الظلم — وانمحوا عن عالم الصور
شاهدوا معناك منبسطاً — ساريا فى سائر الفطر
ودروا أن الحجاب همو — عن جمال المنظر النضر
وقضى يعقوب حاجته — وانتهى زيد إلى الوطر

(واليقين) بالله تعالى وهو سكون القلب إلى الشىء والطمأنينة به حتى لا يبقى فى القلب حركة إلى سواء بالكلية (خروجك) أيها المريد أى إعراضك إعراضا وجدانيا كما ذكرنا (عنك) أى عن نفسك زيادة على خروجك عن جميع الأغيار بحيث ينمحى تعين وجودك

من عين بصيرتك وتجد الحق ظاهراً للحق لا لك لأنك معدوم وهو موجود وهذا اليقين لَه ثلاث مراتب مرتبة علم اليقين وهى فهمك لما ذكرناه فى تعريف اليقين وإطلاعك على دليل صحة ذلك من الكتب والسنة حتى لا يبقى عندك شبهة فى صحته وصدقه ومرتبة عين اليقين وهى وجدان ذلك فى نفسك وشهوده فيك وذوقك لَه بحيث تستغنى عن حكايته وعن الاستدلال على صحته ومرتبة حق اليقين وهى أن تجد ذلك فيك وتجد فهمك لذلك فى عين وجدانك لَه وينمحى وجودك مع الحق تعالى فى عين وجودك الثابت لك فترجع إلى بدايتك فى نفس نهايتك وفوق ذلك مراتب أخرى أكثر من هذه .

ثم شرع فى بيان مراتب الإيمان واليقين بطريق الإجمال وهى أن تجد ذلك فيك وتجد فهمك لذلك فى عين وجدانك لَه وينمحى وجودك مع الحق تعالى فى عين وجودك الإجمالى فقال **(إذا زاد)** أى قوى وأشتد **(إيمانك)** المذكور الذى هو خروجك عن الأغيار فى وجود الواحد القهار **(نقلت)** أيها السالك أى نقلك الحق تعالى ولم يقل انتقلت إذ لا مدخل للنفس فى ذلك **(من حال)** وهو مالا استقرار لَه من مشاهد القرب إلى الله تعالى **(إلى حال)** آخر أعلا منه وذلك بأن تنقل من حال شهودك الأغيار إلى أحكام الواحد القهار على حال شهودك جميع ذلك أفعاله الصادرة عنه بالإرادة والاختيار ومنه إلى شهودك كل ذلك أسماءه الحسنى المسمى بها من غير استتار ثم منه إلى شهودك ذلك صفاته تعالى مشرقة النوار ثم منه إلى شهودك ذلك ذاته ﷻ العلية المنزهة العظيمة الأسرار حتى تصل إلى رتبة اليقين فوق رتبة الإيمان المتين فترقى إلى مقامات عالية . ومراتب رفيعة سامية وذلك قولَه **(وإذا زاد)** أى قوى وأشتد **(يقينك)** المذكور الذى هو خروجك عنك بعد خروجك عن جميع الأغيار **(نقلت)** أى نقلك الحق تعالى بلطفه **(من مقام)** وقد سبق تعريفه والمراد رتبة من مراتب اليقين **(إلى مقام)** أرقى منه فمن رتبة علم علم اليقين إلى رتبة عين علم اليقين ثم إلى رتبة حق علم اليقين ثم إلى رتبة علم عين اليقين ثم إلى رتبة عين عين اليقين ثم إلى رتبة حق عين اليقين ثم إلى رتبة علم حق اليقين ثم إلى رتبة عين حق اليقين إلى رتبة حق حق اليقين ثم إلى رتبة حقيقة حق اليقين كذلك . وهكذا فى مراتب أخرى عالية ومعارج سامية . وتفصيل هذه المقامات وبيانها لا يليق بهذا المختصر

(الشريعة) المحمدية وغيرها فى حق كل أمة كذلك قبل النسخ وهى البيان الإلهى المستفاد من الوسائط الناطقين عنه تعالى المقتضى لامتثال أمره تعالى فعلا أو تركا قطعا أو ظنا أو تخييرا والمخاطب بذلك كل مكلف لانتظام الأحوال وظهور الفرق بين الهدى والضلال

(جعلت لك) أيها العبد المكلف أى أنت المخاطب بها جميعها إيمانا واستعمالا (حتى تطلبه) ﷻ بإيمانك وأقوالك وأعمالك فيكون هو مقصودك من ثوابك على ما يصدر منك من إطاعته الباطنة والظاهرة . وتقطع نظرك عن طلب غيره من ثواب الآخرة أو الدنيا (منه به تعالى) يعنى لا تطلبه من غيره فان غيره لا يوصلك إليه لأنه عاجز عنه مثلك والعاجز لا يقدر على إيصال نفسه ما لم يوصله هو ﷻ إليه فكيف يوصل غيره وقد قال تعالى لمحمد ﷺ مع أنه أفضل الخلق عنده ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾(القصص: ٥٦) . وقال تعالى له أيضا : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ (آل عمران: ١٢٨) . فمن دونه بالفضيلة أولى أن لا يهدى من أحب وأن لا يكون له من الأمر شئ وأما قوله تعالى لمحمد ﷺ ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى: ٥٢) . فمبنى على خطاب الله تعالى له ﷺ وهو مقام أنمحاق أرادته ومحبته وجميع صفاته في إرادة الحق تعالى ومحبته وجميع صفاته كما قال تعالى عنه فى هذا المقام ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ (النساء: ٨٠) . وأما آية ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ . فقد خاطبه تعالى بها وهو فى مقام الغين الذى قال عنه ﷺ (أنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة) وفى رواية (مائة مرة) .

ومقام الغين يقتضى الفرق وثبوت النفس بالحق تعالى وغير الحق تعالى لا يوصل إليه تعالى ما لم يكن الله تعالى هو الموصل وحده سواء كان الغير مرشدا كاملا من بنى آدم أو من غيرهم قال تعالى ﴿ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً ﴾ (الكهف: ١٧) وكذلك العبادات والطاعات وإن كانت مقبولة عند الله تعالى لا توصل إليه تعالى لأنها غيره والإيصال منه تعالى وحده لا منها (لك) أى لأجل إعطاء نفسك حقها من الفناء والزوال فى تجلى العظيم المتعال ثم بقاؤها به تعالى من غير بقاء لها معه على حدة ولا استقلال فإذا طلبته ﷻ كما قال الشيخ ﷺ لا من عبادة ولا من عبادتك له ولا لأجل غيره من نعيم الآخرة أو النجاة من نارها أو نحو ذلك فإن الشريعة حينئذ لا تصير لك لانكشاف الأمور عندك والشريعة إنما هى البيان الإلهى كما ذكرنا لأنها مشتقة من الشرع وهو البيان قال الله تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ﴾ (الشورى: ١٣) . أى بين لكم وأظهر وتصير جميع أعمالك الصادرة منك جارية عليك جريان باقى أعراضك التى أنت موصوف بها فإن من المعلوم عندك أن البياض أو السمرة التى هى وصفك مقدرة عليك حكما إلهياً وواقعة فيك قهراً عنك لا قدرة لك على امتناعك عنها ولا على اتصافك بها إذا لم تكن متصفاً بها .

وكذلك أعمالك الخير والشر جميعها من هذا القبيل وإن زعمت فى نفسك وأنت فى

جاهليتك قبل إسلامك إنك قادر على إيجادها فيك وعلى امتناعك منها فإذا دخلت فى مقام إسلامك المذكور وجدت نفسك لم تبرح من حين خلقها الله تعالى عاجزة عن إيجاد شئ وعن الامتناع عن شئ وإنما كان الوهم والجهل مانعك عن إدراك حقيقة الأمر فعند ذلك تسترسل من مقدم حقيقة مؤخر إدراك الأمر فعند ذلك تسترسل مع أفعال الله تعالى فيك وأحكامه عليك وتشتغل نفسك بإنفاذ ما قضاه الله عليك وقدره فلا تتفرغ لدعوى إيجاد أمر أو لامتناع من أمر وأما جزؤك الأختيارى الذى هو كتابة عن مجموع قدرتك الحادثة فيك وإرادتك الحادثة فهو أيضاً عرض يوجده الله تعالى فيك على التجدد والتبدل كيفية الأعراض لا تأثير له فى شئ من أعمالك قال الله تعالى ﴿ لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ (البقرة: ٢٦٤) . وإنما وجوده فيك يرفع عنك إسم المجبور ويسميك باسم القادر المريد المختار لأن لك قدرة وإرادة وأختياراً وإن كانت قدرتك وإرادتك وأختيارك لا تأثير لشئ منها مطلقاً فيصير الخير من أعمالك يستبين لك انه مرضى لله تعالى بطريق الإحساس الروحانى والشر منها أنه غير مرضى لله تعالى إحساساً روحانياً موافقاً لكتاب الله وسنة رسوله وتصير محفوظا وأن لم تكن معصوما فحينئذ أنت قائم بأمر الله تعالى على بصيرة منه والله تعالى لا يأمر بالفحشاء ولا المنكر فليس فى أفعالك فحشاء ولا منكر بل جميعها طاعات لله تعالى حتى ترجع إلى نفسك فتقوم بها وتغفل عن قيامك بأمر الله تعالى على بصيرة فتعود إلى فحشائك ومنكرك والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

(والحقيقة) أى حقيقة الشريعة يعنى حقيقة البيان الإلهى على ما هو عليه لا على حسب فهم القاصرين له فلا فرق بينها وبين الشريعة الا بحسب كمال الفهم وقصوره وكمال الفهم إنما يحصل للعبد من ربه بلا واسطة وقصور الفهم يحصل للعبد من ربه بواسطة اعتماد العبد على نفسه واتكاله عليها بتقدير الله تعالى عليه ذلك فاالله يضل من يشاء بنفس من يشاء ويهدى من يشاء به تعالى لا بنفس ولا بغيرها والنفس قائمة به تعالى فإذا أضل بها كان هو المضل بلا واسطة إلا أنه تعالى أوجد فى ذلك العبد الذى أراد الله أن يضله أعتبار مدخلية نفسه واستقلالها فعامله الله تعالى بما فيه فأعطاه خلقه ثم هداه إلى خلقه ذلك كما قال تعالى ﴿ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (طه: ٥٠) . والهداية تستعمل فى الضلال أيضاً قال تعالى ﴿ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾(الحج: ٤) . فهى فى هذه الآية مطلقة فى الخير والشر لمناسبة كل شئ (له) أى الحقيقة لله ﷻ وحده لا يشاركه فيها مشارك ولا ينازعه منازع لأن بيانه الحقيقى مختص به لا يعلمه أحد على ما هو عليه غيره تعالى كما قال تعالى ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ ﴾ (آل عمران: ١٩) . فإذا كان الدين الإسلام عند الله لا

يعلمه أحد على ما هو عليه إلا الله ولهذا قال النبي ﷺ من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين أي يفهمه فيه لا يفهمه غيره تعالى لأن الدين عنده لا عند غيره حتى يفهمه ذلك الغير ودعا النبي ﷺ لابن عباس ﷺ فقال اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل ولو كان النبي ﷺ الذي هو عبد مخلوق فضله الله تعالى على جميع العباد يقدر أن يفقه أحداً في الدين الذي عند الله ما قال اللهم فقهه في الدين كما لم يقل اللهم بلغ أمتي أمرك ونهيك بل بلغهم هو ذلك والله تعالى لا يفقه أحداً في الدين حتى يصير ذلك العبد عنده تعالى كما قال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ (الأعراف: ٢٠٦) . وقال تعالى ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ (القمر: ٥٤ ، ٥٥) . وما دام العبد عند نفسه لا عند ربه فجميع فهمه في الدين قاصر ومن قصوره عن فهم من هو عند ربه يظن أن ما فهمه هو وأمثاله من الدين الإلهي شريعة وما فهمه من هو عند الله حقيقة ولاشك في التفاوت الظاهر بينهما كالتفاوت بين الخطأ والصواب ولكن ظنه ذلك فاسد والدين الإلهي واحد ولكن الصواب ليس كالخطأ ولهذا ورد أن من أجتهد فأخطأ فله أجر واحد ومن أجتهد فأصاب فله أجران فمن كانوا عند نفوسهم اجتهدوا كلهم فأخطئوا فلهم أجر واحد قال تعالى ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ (الطلاق: ٧) . أي من ذلك الفهم القاصر في الدين الإلهي وقال تعالى في آية أخرى ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦) . أي بحسب قصورها أي لأنها نفس فهي قاصرة ضعيفة وقال تعالى ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾ (الحديد: الآية٢٧) يعني بفهمهم ديننا على خلاف ما هو عليه عندنا قائم .

قال تعالى ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ (الحديد: ٢٧) . يعني ما جعلناها مفروضة عليهم واعتبرناها منهم إلا لأنهم طلبوا بها مرضاة الله تعالى أي رضاه عنهم وهم قاصرون لأنهم عند نفوسهم تقديراً منا عليهم فأتوا بما في وسعهم من الفهم فلهم أجر واحد وهو ابتغاء مرضاة الله تعالى لا ما فهموه لأنه خطا والخطأ لا أجر له ومن كانوا عند ربهم اجتهدوا أيضاً فأصابوا كلهم فلهم أجران أجر الاجتهاد لطلب مرضاة الله تعالى وأجر الصواب الذي أفهمهم إياه من هم عنده وهو الله تعالى، فاجتهاد الفريق الأول يسمى عندهم شريعة وهي معتبرة عند الله تعالى وقد كلفهم الله تعالى بها، واجتهاد الفريق الثاني يسمى حقيقة عند الفريق الأول، ويسمى عند الفريق الثاني شريعة وحقيقة، وقد كلفهم الله تعالى بها ولهذا قال (**حتى تطلبها**) أي الحقيقة بالله تعالى طلباً ذوقياً وجدانياً لا فهما تخيلياً وهو معنى كون ذلك الطلب (**به**) أي بالله ﷻ لا بنفسك ولا بحولك ولا بقوتك فإن النفس ليس في وسعها من الطلب غير التوجه بحولها وقوتها وهما لا يقتضيان إلا فهم المطلوب وتخيله

لا ذوقه ووجدانه والذوق والوجدان لا يوصل إليهما إلا الله تعالى الذى لا حول ولا قوة لأحد إلا به فإذا ترك العبد حوله وقوته اللذين له تعالى وطلبه به تعالى وحده لا بواسطة غيره وجد مطلوبه وواصل محبوبه (لـه) أى ذلك الطلب لأجل الله تعالى لا لأجل نفسك لتحصيل نعيمها أو النجاة من جحيمها أو للترقى فى المقامات العالية والعروج فى المراتب السامية فإن ذلك كله قواطع وموانع كما سبق (عز) أى أمتنع عن الطلب بغيره تعالى إذ لا مؤثر غيره مطلقاً فكل طالب إنما يطلب به تعالى ولكن أما أن يعرف ذلك فيكون طلبه به تعالى أولا يعرف ذلك وتحجبه ظلمة نفسه وكدورة طبعه فلا يكون طلبه به تعالى بل بنفسه فى زعمه فيعامله الله تعالى بزعمه ويحكم عليه بمقتضى علمه وعلى حسب حكمه كما قال ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) (وجل) أى عظم عن كون الطلب لأجل غيره تعالى مطلقاً إذ كل طالب لأجل غرض يستنظر من غرضه ذلك جلب نفع أو دفع ضر والنافع والدافع هو الله تعالى لا سواه فالمقصود هو على كل حال لأنه خالق كل شئ غير أن الطالب أما أن يعرف ذلك فيكون طلبه لأجله تعالى أو لا يعرف فيكون طلبه لأجل غيره تعالى فى زعمه ثم لما ذكر الشيخ رضي الله عنه الطلب فى الموضعين نزه المطلوب الحق عن مشابهة كل مطلوب باطل مما سواه قال ﷺ أصدق كلمة قالها الشاعر . قول لبيد:

ألا كل شئ ما خلا الله باطل

فقال (حيث) ذلك المطلوب الحق (لاحين) أى لا زمان والزمان أمر موهوم يفهم من ترتيب الكائنات فى هذا الوجود بالتقديم والتأخير يسمى بالساعة واليوم والليلة والأسبوع والشهر والسنة والقرن والحقب والدهر وترتيب الكائنات بالتقديم والتأخير ليس ثابتا لها فى حضرة علم الله تعالى ولا فى حضرة كلامه وإنما هى موجودة فى هاتين الحضرتين وجوداً واحداً جامعا محيطا بها أحاطة واحدة ثم فى ظهورها عن هاتين الحضرتين تظهر مرتبة يتقدم بعضها على بعض ويتأخر بعضها عن بعض على حسب ما سبقت به الإرادة الأزلية فأول شئ ظهر منها مساو فى القرب إلى الله تعالى لجميع ما بعده وبعضها أقرب إلى بعض من بعض وأبعد كذلك فلا يتصور أن يكون لشئ من الأشياء مع الله تعالى زمان فكيف يكون لله تعالى زمان ولا يتصور أن يكون لأول شئ ظهر من الكائنات زمان فكيف يكون لله تعالى زمان ولا يتصور أن يكون للزمان زمان فكيف يكون لله تعالى زمان (ولا أين) أى لا مكان والمكان هو الأمر الموهوم أيضا يفهم من تراكم الكائنات بعضها على بعض والتصاق بعضها ببعض بحيث لا خلا موجود بل الكل ملأ فإن الأرض لاصقة بالماء وبعضها لاصق بالهواء كالماء والهواء لاصق بالنار والنار لاصقة بفلك القمر وجميع الأفلاك والملاك العلوية لاص

بعضها ببعض إلى الكرسى والعرش والكرسى لاصق بالعرش وكذلك سائر الكواكب والمواليد الأرضية لاصق بعضها بالأرض وبعضها بالماء وبعضها بالهواء . وبعضها بالنار وجميع الكائنات العلوية والسفلية متراكم بعضها على بعض تراكم أجزاء الشيء الواحد بعضه على بعض ثم أن الشيء الأسفل يسمى مكانا للشيء الأعلى منه والأشياء المحيطة بالشيء الواحد تسمى حيزا لذلك الشيء الواحد وهكذا فى كل شئ ومجموع الكائنات كلها لا مكان لها ولا حيز لها فكيف الله تعالى يكون لَه مكان أو حيز .

ثم شرع فى بيان الشريعة والحقيقة حيث ذكرهما فقال معقباً بالفاء (فالشريعة) المذكورة فيما سبق واصلها مورد الماء يسمى شريعة وسميت بذلك لأنها إذا عطشت الأمة ترد إليها فتروى منها (حدود) أى مقادير قدرها الشارع لمصلحة العباد الدنيوية والأخروية ورتبها على أسباب محظورة كالحد لشرب الخمر والزنا والسرقة ونحو ذلك أو غير محظور كالصلاة والزكاة والصوم والحج بأوقاتها وما أشبه ذلك . (وجهات) أى اعتبارات وهى إما جهات فعل كالفرض والواجب والنفل والصحة وأما من جهات ترك كالحرام والمكروه والبطلان ونحو ذلك .

(والحقيقة) التى تقدم ذكرها وحقيقة الشيء فى الأصل ماهيته التى هو بها ثابت فى نفسه لا باعتبار علم العالم به فإن العالم به ما علم منه إلا مقدار قوة علمه وضعفه وما أعطيه من العلم فقد علم استعداده لا حقيقة ذلك الشيء كله مقام المرآة التى رأى فيها مقدار استعداده وأعطته من العلم بها مقدار صورة ذلك الاستعداد الذى فيه غير هذا لا يكون أبداً فالعلم بحقيقة شئ من الأشياء لا يكون أبدا إلا بطريق اتحادك مع ذلك الشيء فى ماهيته لا من حيث علمه هو بها فى نفسه فإنه قد يعلمها على حسب استعداده أيضاً فيكون كعلم غيره بها بل اتحادك به حيث ماهيته الثابتة لَه فى الوجود المتميزة عن غيرها بعوارضها بل ترجع إلى أصلك وأصلها ثم تنزل عليها من حيث أصلها الذى هو أصلك فتتحد بها فتعلمها على حسب ما هى عليه علما لا تعلمه هى بنفسها لنفسها فهذه الحالة هى الحقيقة عند علماء الحقيقة ولهذا قال (لاحد) أى للحقيقة لأن الحدود قيود الماهيات المطلقة كلها والعلم بالقيود ليس علما بالحقيقة بل العلم بالحقيقة مطلق عن القيود والمطلق عن القيود لا حدود لَه فلاحد للحقيقة (ولا جهة) لها أيضاً لأن الجهات اعتبارات الماهيات المطلقة والعلم بالاعتبارات ليس هو علماً بالحقية بل العلم بالحقيقة مطلق عن جميع الاعتبارات فلا جهة للحقيقة .

ثم شرع فى ذكر فضيلة الحقيقة على الشريعة فقال (القائم) أى الوجود الثابت

(بالشريعة) المحمدية المذكورة والمراد لمواضع نفوذ أحكامها منه ومن غيره العامل بها فعلا وتركا عن علم وخشوع (فقط) أى دون الحقيقة (تفضل) أى أنعم الله تعالى (عليه بالمجاهدة) التى هى علمه وعمله لأنه مع نفسه حيث هو فى مرتبة الشرك الخفى فالمجاهدة نعمة من الله تعالى عليه وفضل حيث يسلم بها من المهالك فهى مجاهدة لنفسه من الشر الخفى قال تعالى ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (العنكبوت: ٦) .فهى مرتبة عالية بالنسبة إليه . ولهذا تفضل الله تعالى عليه بها

(والقائم) أى الموجود الثابت (بالحقيقة) أى الحقيقة الشرعية المذكورة يعنى المدرك للأمر الإلهى الذى قامت به السموات والأرض وما بينهما على ما هو عليه إدراكاً غيبياً عنه بعلم أزلى لله لا له ولم يقل فقط كما قال فى الشريعة لأن الحقيقة لا يمكن أن تكون بلا شريعة أبداً بخلاف الشريعة تكون بلا حقيقة ولهذا احتاج إلى قوله فقط فى الشريعة ولم يحتج إليه فى الحقيقة (تفضل) الله تعالى (عليه بالمنة) التى هى أمر الله الذى قام به كل شئ وهى الحقيقة والحاصل أن لله تعالى عالمين أنتجهما نجليه وظهوره بذاته لذاته الأول يسمى عالم الأمر وهو واحد كما قال تعالى ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ (القمر: ٥٠) . ومعرفته تسمى علم الحقيقة والثانى يسمى عالم الخلق وهو كثير كما قال تعالى ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل: ٨) . ومعرفته تسمى علم الشريعة والمراد بمعرفته المعرفة المطابقة لما هو عند الله تعالى وهى معرفة الإيمان لا معرفة العقل والحس وكلا العالمين لله تعالى كما قال : ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ (الأعراف: ٥٤) . وقال تعالى ﴿ لَه مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض ﴾ (البقرة: ١٠٧) . وقال تعالى ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ (البقرة: ٢٨٤) . وقال تعالى لنبيه ﷺ ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ (آل عمران: ١٢٨) .

والحقيقة والشريعة على الله تعالى وهما شئ واحد مقصود للمكلف بالتكليف كما أن الأمر والخلق واحد وأن اتحد الأمر وتعدد الخلق فالخلق صور الأمر والأمر كنة ذات الخلق وكل شئ من الخلق هو صورة الأمر الواحد وقد اتحدت ذات الأمر وكثرت صوره لكمال تنزيهه تعالى فإذا كانت صورة من صور الخلق صورة الأمر ظهر ذلك الأمر بها فإذا كانت صورة أخرى تضاد تلك الصورة صورة ذلك الأمر أيضاً تنزه الأمر فى نفسه عن تلك الصورة الأولى بسبب هذه الصورة الثانية التى هى مضادة لتلك الصورة الأولى وتنزه أيضاً عن هذه الصورة الثانية بسبب تلك الصورة الأولى التى هى مضادة لها وهكذا فى جميع صور العالم كله العالم العلوى والعالم السفلى فثبوت الصورة للأمر الإلهى تشبيه وهو فى الحقيقة تنزيه

كما قال تعالى ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (الاسراء: ٤٤) .

والتسبيح هو التنزيه فكل شئ صورة ذلك الأمر الإلهى الرحماني القديم الذى قام به كل شئ الذى كنى عنه تعالى بقوله ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (النحل: ٤٠) . وإذا كان كل شئ صورته كان مشبهاً لا بل كان منزهاً ولكن لا يفقه الناس تنزيه كل شئ إذ كل شئ له تنزيه بلسان خاص به لا يفهمه غير ذلك الشيء فالتشبيه تنزيه والتنزيه تشبيه ولا يفقه ذلك إلا الإنسان الكامل وأما غيره من القاصرين فيطعن بعضهم على بعض ويلعن بعضهم بعضاً وهو يرى ذلك منهم كمال التنزيه لكمال الضدية فله عمله ولهم أعمالهم هم بريئون مما يعمل وهو برئ مما يعملون قال النبى ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) . الحديث .

وعلم الحقيقة هو الذى أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يطلب الزيادة منه بقوله ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ (طه: ١١٤) . أى علماً بك إذ العلم بغيره راجع إلى الحقيقة إلى العلم به باعتبار أن كل شئ هو صورة ذلك الأمر الواحد كما ذكرنا ولا اعتداد بالعلم بالشيء من حيث ظهوره فقط من غير معرفة كنه ذات ذلك الشيء بل هذا العلم بهذه الطريقة القاصرة ليس بعلم أصلا كما قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾(البقرة: ٢١٦) . مع إنا نعلم بأنفسنا هذا العلم القاصر الذى هو علم الأشياء من حيث ظهورها فقط كما قال تعالى ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (الروم: ٧) . فنفى الله تعالى أن يكون هذا علما فتعين أن يكون أمره لنبيه ﷺ بطلب الزيادة من العلم هو أمره بالعلم به تعالى وهو علم الحقيقة كما ذكرنا .

وأما علم الشريعة فلم يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بطلب الزيادة منه بل كان النبى عليه الصلاة والسلام ينهى الصحابة ﷺ عن كثرة سؤالهم عنه ويقول لهم اتركونى ما تركتكم ولما نزلت آية ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ (آل عمران: ٩٧) . سأل الأقرع ابن حابس النبى ﷺ (أفى كل عام يا رسول الله) فلامته بقية الصحابة ﷺ على سؤاله هذا مخافة أن تنزل آية فى كل عام مع إن سؤاله فى علم الشريعة وقد أنزل الله تعالى على النبى ﷺ حين كانت الصحابة ﷺ يكثرون السؤال عن أحكام الشريعة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ (المائدة: ١٠١) .

قال البيضاوى رحمه الله تعالى روى أنه لما أنزلت ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾

قال سراقة بن مالك ﷺ أكل عام فأعرض عنه رسول الله ﷺ حتى أعاد ثلاثاً فقال لا ولو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم فاتركونى ما تركتم فنزلت آية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ (كان يخطب ذات يوم غضباناً من كثرة ما يسألونه عنه مما لا يعنيهم فلما أكثروا عليه غضب ثم قال للناس سلونى عما شئتم فلا أسأل عن شئ إلا أجبت فقال رجل أين أنا فقال فى النار فقال آخر من أبى فقال حذافة فقام آخر فقال من أبى قال أبوك سالم مولى شيبة وكان يدعى لغير أبيه) . فلما رأى عمر ﷺ ما فى وجهه فقال يا رسول الله إنا لنتوب إلى الله تعالى ﷻ فنزلت ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ اهـ .

والحاصل أن مسائل علم الشريعة إذا كانت واقعة حال يجب السؤال عنها ويجب تعليمها كما قال الفقهاء أن من أراد البيع والشراء يجب عليه تعلم كتاب البيوع وكذلك من أراد النكاح بتعلم كتابه ومثل هذا الطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج ونحو ذلك وأما ما زاد على ذلك مما لا حاجة له إليه فى ذلك الوقت لا يجب عليه تعلمه ولا السؤال عنه ولا أمره الله تعالى بالسؤال عنه إلا وقت الاحتياج إليه للعمل به لا لعلمه فقط من غير عمل به .

فالزيادة من علم الشريعة ليست مطلوبة بخلاف الزيادة من علم الحقيقة فإن العبد كلما ازداد علماً بالله تعالى أزداد خوفاً منه تعالى وخشية وهيبة وتعظيما وقرباً إليه تعالى فيزكوا عمله ويكثر ثوابه وتزداد مزيته وترتفع رتبته عند الله تعالى قال النبى ﷺ (ركعتان من عالم بالله ﷻ أفضل من ألف ركعة من جاهل به) وأما علم الشريعة فكلما ازداد منه من غير عمل به وازداد حجياً عليه من الله تعالى وازداد طرداً وبعداً عن الله تعالى، وازداد كبراً فى نفسه وافتخاراً على الناس وإعجاباً بعلمه وانكالا على غير الله تعالى من علمه القاصر وعلمه الذى لا عمل له به .

فإن قلت ليس كلامنا مع غير العامل بعلمه بل مع العامل به . قلت نحن كلامنا أيضاً فى علم الشريعة فقط من غير معرفة علم الحقيقة فإن صاحب علم الشريعة من غير حقيقة غير عامل بعلمه لأنه مشرك شركاً خفياً ولا شرك فى الحقيقة مطلقاً وهو لا يعرف غير أحكام الله تعالى التى حكم بها على كل شئ وأما معرفته بالله تعالى التى تزيل عنه الشرك الخفى وبحقائق الأشياء على ما هى عليه فلا يعرف ذلك إلا كما تعرف العامة من أهل الأسواق وغيرهم ولا يعرف نفسه أيضاً على ما هى عليه إذ لو عرفها لعرف ربه ولعرف كل شئ ولشهد الله تعالى فى كل شئ كما كان يقول بعضهم ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله فيه ومعلوم أن رؤية الله تعالى عند هذا القائل من غير

تشـبيه ولا تكيـيف وكـيف يقـدر هذا الفقيه الذى هو والعامة سواء فى معرفة الله تعالى غير أنه تميز عـن العامـة بمعـرفة أحكـام الله تعـالى التى حكم بها على كل شئ من غير زيادة معرفة بالحاكم ولا بكـل شـئ أن يرى الله تعالى فى كل شئ مع التنزيه التام إلا بطريق الاستدلال كرؤية العميان مع أن الله تعـالى هـو الظاهـر عـلى مـا هو عليه من غير تغيير ومع ذلك هو الباطن فلا يحيطون به علماً ولا يدركونه فهماً ولى من النظم فى هذا المعنى:

قـد بـالغ فـى الظهـور والكـتمان حـتى لقـد حـازت أولـو العـرفان

والسـر فـى التحقـيق كـالإعلان أودعـه فـى هـذه الأكـوان

(وشتان) أى بعد وعدم تساوى (ما بين المجاهدة) التى هى مكابدة النفس وحبسها فـى العـبادة الظاهـرة والباطـنة الممنون بها من الله تعالى على من قام بالشريعة فقط كما ذكرنا (والمـنة) الـتى هـى الـنعمة العظيمة والفضيلة الجسيمة الممنون بها من الله تعالى على من قام بالحقـيقة مـع الشـريعة كمـا سـبق وذلك لأن المجاهدة تعب والمنة راحة والمجاهدة تحصيل والمـنة حصـول والمجـاهدة معهـا شرك خفى والمنة معها إيمان ويقين والمجاهدة خصام والمنة مصالحة إلى غير ذلك مما لا يخفى على المريد السالك .

ثـم أشـار الشـيخ ﷺ إلى شئ من الفرق بينهما فقال (القائم مع المجاهدة) أى المكابد لهـا المواظـب علـيها وهـو المشـتغل بعبادة الله ليلا ونهاراً علماً وعملاً من غير معرفة الحقيقة (موجـود) آخـر فـى نفسـه مع الله تعالى يعتقد ثلاثة أشياء موجودة على السواء هو فى نفسه وعـبادته الـتى يـأتى بها وربه المعبود له فالله تعالى عنده واحد من هذه الثلاثة قال الله تعالى ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ ﴾ (المائدة:٧٣). وإن كان نزول هذه الآية فى حق النصـارى ولكـن إشـارتها تقتضـى مـا ذكـرنا فى العابد من غير معرفة الحقيقة وكذلك جميع الأعمـال الـتى يفعـلها العـابد الجـاهل بمعـرفة الحقـيقة سواء كانت عبادات أو اعتقادات أو عـادات أو معـاملات يفعلها وهو يعتقد التثليث فيها وإن كان يعلم أن شيئين من هذه الثلاثة مخلوقـان وهمـا نفسـه وعملـه والشيء الثالث قديم وهو ربه الذى خلق كل شئ أليس أنه فى أعـتقاده يجعل الله تعالى واحداً ثالثاً لهذين الشيئين يغاير هذين الشيئين بالذات والصفات وأما قولـه تعـالى ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ (المجادلة:٧) . أى منفرد عنهم فى رتبة أخرى أعلى مـن رتبـتهم بحيـث لا وجود لهم معه لامتيازه عنهم فى رتبة أخرى من مراتب العدد وههنا لـو أعـتقد العـابد انفـراد الله تعـالى بمرتـبة أخرى عنه وعن عمله لاعتقد أنه وإن عمله مفقود

معدوم بالنظر إلى وجود الله تعالى بحيث تبقى مرتبته الأولى ومرتبة عمله الثانية متساويتين عنده فى الدخول تحت مرتبة واحدة وهى الاثنان ورتبة الله تعالى رتبة أولى أخرى ثالثة لهذين الاثنين غير مساوية لهما كمساواتهما فى مرتبة الاثنين ولا يمكن أن يعتقد أنه وأن عمله مفقود معدوم بالنظر إلى وجود الله تعالى الثالث لهذين الاثنين بالنظر إلى وجود الله تعالى عن كشف وشهود إلا إذا كان لَه علم بالحقيقة فيكون صاحب شريعة وحقيقة وهو المطلوب .

(والقائم مع المنة) من الله تعالى عليه وهو صاحب شهود الأمر الإلهى فى كل شئ لا عبادة لَه عند نفسه ولا علم لَه عنده غير أن جميع ما يظهر منه من الطاعات والعلوم الإلهية يشهدها منناً من الله تعالى عليه لا أعمالا صادرة عنه لأن العمل يحتاج إلى عامل والعامل **(مفقود)** لا وجود لَه عند نفسه والموجود عنده هو الله تعالى وحده فقد تخلص من التثليث فى عمله وثبت لَه التوحيد على كل حال وعبد ربه وجاهد نفسه حتى أتاه اليقين ففقد عن وجوده وظهر لَه أن حقيقة العابد منه هى حقيقة معبوده فانقلبت عبادته لنفسه منة من الله تعالى عليه وهدية مرسلة من ربه إليه قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (الحجر: ٩٩) . وقد عبده حتى أتاه اليقين وأمتثل أمر رب العالمين ثم صارت عبادته شكراً من الله تعالى لله تعالى فهو الشكور قال تعالى ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (سبأ: ١٣) . والشكور هو الله تعالى لأنه من أسمائه تعالى وقد سئل النبى ﷺ عن كثرة عبادته وتهجده وقد غفر الله تعالى لَه ما تقدم من ذنبه وما تأخر فقال (أفلا أكون عبداً شكوراً) ولم يقل عبداً عابداً لأن اليقين أتاه فانتهت عبادته المأمور بها ﷺ وانتقل إلى الشكر فهو العبد الشكور فقد فرق بذكر العبد وجمع بذكر الشكور وهذه حالته ﷺ فرق وجمع لا فرق فقط ولا جمع فقط والله الهادى إلى صراط مستقيم .

ثم شرع الشيخ قدس الله سره فى ذكر المقامات الثلاثة مقام أهل البداية ومقام أهل العناية ومقام أهل النهاية فقال : **(الأعمال)** وهى فعل الأوامر القطعية والظنية والكف عن المناهى القطعية والظنية على وجه الإخلاص والخشوع لله تعالى **(متعلقة بالشرع الشريف)** أى منوطة به وتابعة لَه ومعلومة منه وموقوفة عليه وراجعة فى معرفتها إليه بحيث لا حركة للمكلف ولا سكون فى ظاهره وباطنه مما يسمى عملا واعتقاداً إلا ولُه فى الشرع الشريف حكم مخصوص لا يعلم إلا من الشرع ولا يعرف إلا منه ولهذا كانت معرفة الشرع الشريف أول المقامات فى السير إلى الله تعالى ما لم يندرج العبد فى المقام الثانى إذا كان من أهل

الجـذب الصـحيح أعتـناء مـن الله تعالى به والواقف فى هذا المقام الأول منقطع عن الله تعالى لعدم ترقيه إلى ما بعده .

وأشـار إلى المقـام الـثانى بقولـه (والـتوكل) على الله تعالى ظاهراً وباطناً بترك الاهتمام والاعتماد على غير الله من جميع الأسباب الشرعية كالطاعات للثواب والمخالفات للعقاب أو العاديـة كـالأكل للشبع وشرب الماء للرى ولبس الثوب لستر العورة أو دفع ألم البرد أو الحر ونحـو ذلـك والعقلية كاستعمال الحواس لإدراك الجزيئات أو الفكر لإدراك الكليات وما أشبه ذلـك فـإن اعتماد المكلف بقلبه على كل شئ من هذه الأسباب واتكاله عليه وطمأنينة قلبه به يمـنعه مـن الـتوكل عـلى الله تعـالى لا الاشـتغال بهذه الأسباب كلها مع عدم الاعتماد عليها بالقلـب وعـدم طمأنيـنة القلب بها فان ذلك لا يمنع من التوكل عليه تعالى وهذا هو المطلوب مـن المكلـف فـى معاطـاة السـباب دون الأول (متعلق بالإيمان) بالله تعالى لأنه خالق الوجود كلـه كمـا قـال تعـالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ (الفرقان:٢) . وأن لا تأثير لما سواه تعـالى مطلقـا فـى أثـر مـا يعنى أن التوكل منوط بذلك وتابع له ومأخوذ منه وموقوف حصوله علـيه ومسـتند فـى وجـوده إلـيه بحيث لا يمكن المكلف أن يتوكل عليه تعالى إلا بعد إيمانه وتصديقه أنه تعالى هو المنفرد لوحده بإيجاد جميع الكائنات وتحريكها وتسكينها فى خير أو شـر أو نفـع أو ضـر ولا تـأثير لسـبب مـن الأسباب مطلقاً وإذا لم يكن عند المكلف استحضار جمـيع ذلـك فـإن الـتوكل على الله تعالى بعيد عنه غير ممكن حصوله له لإعراضه عن الباب الموصـل إلـيه تعالى وعلى الله قصد السبيل والواقف فى هذا المقام الثانى منقطع عن الله تعالى أيضاً لعدم ترقيه إلى ما بعده مما هو المقصود .

وأشـار إلى المقـام الثالـث بقولـه (والتوحيد) أى أفراد الله تعالى بالوحدانية فى الوجود فـلا وجـود لشـئ مـن الأشـياء مطلقـاً إلا بوجود ﷻ بحيث أن وجوده تعالى هو ذلك الوجود الـذى وجد به ذلك الشىء ولا وجود لذلك الشىء من نفسه بوجود آخر غير وجوده تعالى أما ذلـك الشـىء فى ذاته وتشخصه فليس هو وجود الله تعالى لأنه هالك باطل ووجوده تعالى حق ثابـت قـال تعـالى ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ (القصص:٨٨) . أى إلا ذاته وذاته هى وجوده القديـم الـذى قـام بـه كـل شئ ولهذا لم يختلف وجود كل شئ لأنه واحد واختلفت الأشياء وتعـددت وتكـثرت وتمـيز بعضـها عن بعض من حيث ماهياتها وصورها ومقاديرها وأرواحها ونفوسـها لأنهـا غـيره تعـالى وتقـدس عنها علوا كبيراً وقال النبى ﷺ أصدق كلمة قالها شاعر قـول لبـيد: ألا كـل شـئ مـا خـلا الله بـاطل ، والباطل فى مقابلة الحق وقال تعالى ﴿ خَلَقَ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ (الأنعام:٧٣) . أى أوجدهما به تعالى فهو وجودها الذى هى موجودة به بحيث لو زال زالت ولم يبق لها وجود آخر غيره تعالى توجد به فجميع الأشياء معدومة هالكة باطلة لا وجدت ولا توجد ولا هى موجودة ولا شمت رائحة الوجود مطلقاً لأن الوجود قديم حق ويتعالى ويتقدس القديم الحق أن يحل فى هذه الأشياء أو يتحد بها وإنما أظهر تجليه عليها لها التجلى القديم الأزلى فلما رأت تجليه عليها توهمت أنها موجودة معه بوجود آخر غير وجوده وهى موجودة به لا معه فالوجود له والماهيات والمقادير والكيفيات والصور لها لا له تعالى فهى على ما هى عليه من العدم وهو على ما هو عليه من الوجود ورؤيتها موجودة إنما هو مجرد وهم منها وغفلة وعدم معرفة بما هو عليه الأمر فى نفسه وهذه الرؤية الوهمية هى الشرك الخفى الذى ينافى التوحيد الصحيح وقد استولت على غالب الناس وأكثر المكلفين قال تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ (يوسف:١٠٦) . (متعلق بالكشف الصحيح) الرافع لهذه الرؤية المذكورة يعنى منوط به وتابع له وموقوف عليه ومأخوذ منه ومستند إليه والكشف هو رفع الحجاب عن عين القلب ورؤية الأشياء على ما هى عليه فقد يتعلق بالإخبار عن الأشياء المستقبلة والماضية البعيدة عن الحضور أو الحاضرة التى لا تعلم فى العادة فيكون كشفا كونيا معه حجاب عن الحق تعالى لتعليقه بغيره تعالى والإلتفات إلى هذا النوع من الكشف نقصان فى كمال أهل الله تعالى ما لم يوجد منهم بلا قصد والكشف المعتبر شهود الله تعالى فى كل شئ عن التنزيه التام وعدم الغفلة عنه فى جميع الأحوال ثم الكشف به تعالى عن كل شئ وشهود كل شئ قائماً بالله تعالى موجوداً بوجود الله تعالى متحركا ساكناً به تعالى .

وللكشف أنواع شتى لا تحصى فإن لكل ذوقاً خاصاً وكشفاً مستقلا على حسب استعداده وقبوله لتجلى الحق تعالى عليه .

ثم شرع الشيخ ﷺ فى ذكر أحوال المحجوبين وبيان ما هم عليه من الانحراف عن الحق المبين فقال : (الناس) أى الموجودون عند نفوسهم من الخلق المكلفين مشتق من ناس إذا تحرك ويقال للخلق وهو اصطلاح القرآن العظيم فى قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾(البقرة:٢١) . فى كل موضع أى يا أيها المكلفون المتحركون بأنفسهم فى زعمهم لا بربهم فيكون دخول العارفين القائمين بربهم معهم فى مسمى الناس من باب التغليب للأكثر على الأقل فى الآية دون عبارة الشيخ قدس الله سره ولهذا قالوا إن كل آية فيها يا أيها الناس فهى خطاب لأهل مكة لأن فيهم الكافرين والمؤمنين والكافرون أكثر وكل آية فيها يا أيها الذين

آمنوا فهي خطاب لأهل المدينة والمقصود بها المؤمنون خاصة وهو اصطلاح قوم في الآيات المكية والمدنية (تائهون) أي واقعون في النية والحيرة معرضون (عن الحق) ﷻ القديم الذي خلق السموات والأرض أو ما هو في مقابلة الباطل مما هو أغم من ذلك (بالعقل) وهو الإدراك الذي يعقل الأشياء بصورها فيه أي يربطها وهو نور خلقه الله تعالى للروح بمنزلة اللسان للجسد يقبل الزيادة والنقصان أعتمد الناس عليه في معرفة الله تعالى فضلوا وأضلوا وفي معرفة الأنبياء عليهم السلام واليوم الآخر وبقية السمعيات ففهموا خلاف المقصود وآمنوا بغير المراد وفي معرفة الشريعة والدين اعتقاداً وعلماً وعملاً فابتدعوا وخالفوا الكتاب والسنة وهم لا يشعرون بحيث لو سمعوا حقيقة معنى ذلك على الوجه المطابق ممن كشف الله تعالى له عن المعنى المراد وتولى سبحانه تعليمه وأراد به خيراً ففقهه في الدين وألهمه رشده كما جاء في الحديث الشريف (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) . ويلهمه رشده لجحدوا ذلك ولم يفهموا ما فهمه من ذلك ولا فقهوا ما فقه من حقيقة المطلوب لأن الله تعالى لا يريد بهم خيراً كما هو مفهوم المخالفة من لفظ الحديث المذكور قال تعالى ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ (المائدة: ٤١) . فتراهم يغالطون أنفسهم ويقولون شيء لا يعقل كيف نقبله وندين الله به وهذا الكلام كلام المجانين مع أنهم يعتقدون أن دين الله تعالى ليس بأمر عقلي وإنما هو من الوحي الخارج عن اطوار العقول وما قولهم ذلك فيمن فقهه الله في الدين وألهمه رشده إلا مثل القوم الذين قالوا في نبيهم ﷺ ﴿ مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴾ (الدخان: ١٤) وقالوا ﴿ أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ (سبأ: ٨) قال فرعون ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ (الشعراء: ٢٧) وسبب ذلك في حق النبي ﷺ أنه جاء من الله بما لا تقبله العقول ولا تقدر على إدراكه إلا بتفهيم الله تعالى وتعليمه وهكذا دين الله تعالى من أول الدنيا إلى آخرها فليس في قوة العقل إدراك ذلك بنفسه إلا بتعليم الله تعالى له وتفهيمه ذلك فالعقل مخلوق في الإنسان لقبول ما يفرض الله عليه من أمر الدين والشريعة فيصدق بجميع ذلك إيماناً بالغيب فإذا عرض الله عليه من أمر الدين والشريعة فيصدق بجميع ذلك إيماناً بالغيب فإذا عرض الله عليه المعنى الإلهي الصحيح بطرق الفيض أي الفتح على قلب السالك بالصدق في طريق الله تعالى والإلهام قبل ذلك فكان له فقهاً في الدين والهاماً لرشده أو ما أنه يخوض بفكره مع الخائضين فلا يباح له لأنه يهلك مع الهالكين .

(و) الناس (تائهون) أيضا (عن الآخرة) أي منازلها العالية ومراتبها السامية (بالهوى) أي يميل نفوسهم وتعشقها بما سوى الله تعالى من نعيم جنة أو نجاة من نار أو محبة طاعة أو اجتناب معصية أو شغف بالوصول إليه تعالى وتحصيل القرب لديه فإن ذلك

كله هوى نفسانى وميل إلى غير الله تعالى وهو حجاب وطرد وبعد عن الله تعالى وصاحب هذه الحالة إن سلم لَه الإيمان بالله تعالى عن العمى والغفلة كان أدنى أهل الجنة كلهم وإن سلب عنه بقلة أدبه مع الله تعالى لمحبته لما سواه فى زعمه خلد فى النار أبد الآبدين وقولى فى زعمه لأن المحبة لا تكون إلا لله تعالى والميل النفسانى لا يكون إلا لَه تعالى سواء جهل ذلك المحب أو عرفه فمحبته الغير والميل إلى الغير إنما هو من الغير ولا غير إلا فى الزعم للجهل بحقيقة الأمر قال النبى ﷺ (**حبك الشيء يعمى ويصم وأضاف الحب إليك لزعمك المغايرة بنفسك**) ثم ذكر الشيء مع أنه هالك إلا وجه الحق تعالى فالعمى والصمم عن وجه الحق تعالى إلى نفس المحب ما كان العمى والصمم عن وجه الشيء إلى نفس المحب وإلا لكانت تلك المحبة بعينها هى محبة الله تعالى لنفسه ظهرت ظهورا خاصا فى الحضرة الإلهية خاصة وآخر كلمة سمعتها من فم شيخ من مشايخى فى طريق الله تعالى رحمه الله تعالى أن قال لى (المحبة ليست إلا لله تعالى) أو كلاماً هذا معناه ثم أنقطع الكلام بينى وبينه فعرفت ما أشار إليه رحمه الله تعالى من معان كثيرة منها ما ذكرناه فى هذا الموضع والله ولى التوفيق .

ثم بين ﷺ ما سبق بقولَه (**فمتى طلبت**) يا أيها المريد كما طلبت الناس (الحق) ﷻ أو ما طلب منك معرفته شرعاً (**بالعقل**) بأن خضت به فى معرفة ذلك معتمداً على قوة إدراكه مستمداً منه معرضاً عن الاستمداد من الله تعالى وحده (**فقد ضللت**) عن الصراط المستقيم ووقعت فى الزيغ عن سواء الطريق القويم حتى تطلب ذلك بربك لا بعقلك من ربك لا من عقلك ويمن الله تعالى عليك بفضله إن شاء فيهديك إليه صراطاً مستقيما وطريقاً قويماً ويتولى تعليمك بنفسه ويستخلصك لشهود حضرة قدسه فيحلك حينئذ من عقال عقك ويخرجك من ظلمة جهلك (**ومتى طلبت الآخرة**) أن تكون فيها مرتقياً إلى الدرجات العاليات والمراتب الساميات كما طلبت الناس (**بالهوى**) أى بما تميل إليه نفسك من الطاعات فضلا عن المباحات والمخالفات (**فقد ضللت**) عما طلبت وذهلت عما قصدت لأن ذلك لا يكون بهوى النفس قطعاً هيهات هيهات وإنما ذلك بتخليص القيام بالرب ﷻ فى جميع الأحوال الظاهرة والباطنة وعزل النفس عن تولية ذلك بالكلية بحيث لا تمتثل أمر ربك بنفسك ولا تجتنب نهيه بنفسك أيضاً وتعتقد أن امتثالك بنفسك أو اجتنابك بنفسك شرك بربك أقبح عندك من معصية ترك امتثالك وعدم اجتنابك لأن المعصية دون الشرك بيقين والله عليم بالمتقين فإذا تم لك القيام بربك فى أعمالك كلها ظاهراً وباطناً فقد حصلت على أعلى الدرجات فى الآخرة وكنت مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

وأعلم أن كل من لم يعبد ربه بربه ممتثلا أمره به مجتنبا نهيه به فهو عابده بهوى نفسه بل عابد هو نفسه فهو عبد هواه لا عبد مولاه كما دخل طائفة من الفقهاء منكرين على الغوث ﷺ ببغداد فقال لهم مرحباً بعبيد عبدى فاشتد إنكارهم عليه لزعمهم عند نفوسهم أنهم عبيد الله تعالى فأجابهم بعض الفقراء أنكم عبيد الهوى لامتثالكم أمر نفوسكم لقيامكم بها لا بربكم والهوى عبده لامتثال أمر ربه لا أمر نفسه لقيامه بربه لا بنفسه فهو مسلم له تعالى لا حركة ولا سكون ظاهراً وباطناً إلا بربه لا بنفسه وأنتم منازعون لله تعالى تتحركون بنفوسكم وتكنون بها فى بواطنكم وظواهركم غافلين عن شهود الله تعالى فأنتم عبيد الهوى دونه تعالى قال الله تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية: ٢٣) .

فعبيد الهوى يعلمون أنهم بيد الله تعالى يقلبهم كيف يشاء بقدرته وإرادته ولكن الله ختم على سمعهم فلم يسمعوا من الحق ما يسمعونه وختم على قلوبهم فلم يشهدوا من الحق سبحانه ما يشهدونه وجعل على بصرهم غشاوة فلم يروا الحق تعالى فيما يرونه مع وجود علمهم به تعالى فهم يسمعون من غيره ويشهدون غيره ويرون غيره ويعلمون أنه خالق كل شئ فقد أضلهم الله على علم فمن يهديهم من بعد الله والله بصير بالعباد وقال تعالى لداود عليه السلام ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (ص: ٢٦) . أى أحكم بربك الحق لا بنفسك فإن الحاكم هو الله تعالى ولكن نفسك مظهراً لحكمه ولا تتبع الهوى أى هوى نفسك فى الحكم فلا تحكم بها أى بقوتها فتضل عن سبيل الله أى عن طريقه المستقيم .

وكذلك أهل الله تعالى إلى يوم القيامة لا يحكمون على شئ مطلقاً بأنفسهم بل بربهم ﷻ فهم يحكمون بالحق سواء كان حكماً شرعياً أو عقلياً أو عامياً فلم يتبعوا الهوى فلم يضلوا عن سبيل الله تعالى بل أهتدوا إليه ﷻ وما سواهم ضالون قال الله تعالى ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام: ١٣٢) . يعنى وإن كانوا هم غافلين عما يعملون .

(المؤمن) المصدق بوجود الله تعالى على الغيب الوجود المطلق موصوفاً بالصفات العلية مسمى بالأسماء الحسنى له أحكام أزلية وأفعال قديمة أبدية مع الاعتراف ظاهراً وباطناً بالعجز عن معرفة شئ من ذلك تسليما لله رب العالمين من غير سؤال عن شئ من ذلك ولا فهم لشئ منه ولا طمع فى الباطن فى معرفة ذلك ولاشك ولا تردد فيه وهو إيمان السلف الصالحين من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين قبل ظهور المبتدعة فى الدين

الخائضين بعقولهم وأنظارهم فيما هم لا يزالون عنه زائغين ولو صبروا حتى يخرج إليهم الحق المبين من جانب الله تعالى لا من جهة عقولهم لكان خيراً لهم كما صبر السلف ﷺ وآمنوا بالغيب معترفين بكمال العجز عنه حتى فقههم الله فى الدين وألهمهم رشدهم حسب ما ورد به الحديث الشريف (**ينظر**) بحسه وعقله فى المحسوسات والمعقولات قائما (**بنور**) أى وجود (الله) ﷻ الذى نور به جميع الكائنات أى أوجدها من كتم العدم قال تعالى ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ (النور: ٣٥) . أى منورهما بنوره القديم الذى لا يشبه جميع الأنوار إذ ليس من جنس الأشعة ولا متلون بلون ولا بمتصل بما أشرق عليه ولا بمنفصل عنه بل هو وجود حق تنصبغ به المعدومات فتظهر موجودة من غير اتصال بها ولا انفصال عنها قال تعالى ﴿ **صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَه عَابِدُونَ** ﴾ (البقرة: ١٣٨) .

فإذا تحقق المؤمن من الناظر بهذا النور وجد النور على ما هو عليه من عدم الاتصال والانفصال ووجد المعدومات كلها على ما هى عليه من العدم الأصلى وهو من جملتها فيترقى من مقام إيمانه إلى مقام معرفته فيقال فيه كما قال الشيخ ﷺ (**والعارف**) بالله تعالى صاحب الكشف والشهود الذى صار كله نوراً كما ورد فى الحديث عن النبى ﷺ أنه كان يقول فى دعائه : (**اللهم أجعل لى نوراً فى قلبى ونوراً فى قبرى ونوراً من بين يدى ونوراً من خلفي ونوراً عن يميني ونوراً عن شمالى ونوراً من فوقى ونوراً من تحتى ونوراً فى سمعي ونوراً فى بصرى ونوراً فى شعرى ونوراً في بشرى ونوراً فى لحمى ونوراً فى دمى ونورا فى عظامى اللهم أعظم لى نوراً وأعطنى نوراً وأجعل لى نوراً واجعلنى نوراً**) .

ومعنى ذلك أن تجعلنى أدرك بك وأسمع بك وأبصر بك وأحفظ بك من جميع جهاتى وأستنير بك فى سائر أحوالى وأطوارى وأقوم بك فى عالم دمى وعظامى وأجنح بك وأنت لى وأنا أنت لأن النور هو الله لا نور سواه فجميع الأنوار الحادثة لا تأثير لها فى شئ مطلقا فليست مرادة بدعاء النبى ﷺ ولما كان هذا مقام العارف بالله تعالى أن يصير كله نوراً ومن لازم ذلك أن يجد الوجود كله نوراً مثله هو عين نوره الذى هو قائم به قال عنه أنه (**ينظر**) فى باطنه وظاهره (**به**) أى بالحق تعالى لا بحسه ولا بعقله ولا بنوره تعالى الذى ينظر به المؤمن (**إليه**) أى إلى الحق تعالى لا إلى سواه إذ لا سواه تعالى فى بصيرة العارف مطلقا وقد أشار الشيخ أبو مدين ﷺ إلى مقام المؤمن ومقام العارف بقوله من أبيات له :

عرفنا بها كل الوجود ولم نزل ... إلى أن بها كل المعارف أنكرنا

فقوله (عرفنا بها كل الوجود) هذا مقام المؤمن الذى ينظر بنور الله وقوله (إلى أن بها

كـل المعارف أنكرنا) هذا مقام العارف الذى ينظر به تعالى إليه ومن مقام العارف قول من قال (مـا رأيـت شيئاً إلا رأيت الله قبله وبعده وفيه) فمن رأى الله تعالى قبل كل شئ أحتجب به تعـالى عـن رؤية كل شئ وهو مقام العارف ومن رأى الله تعالى بعد كل شئ أحتجب به تعالى أيضـاً عـن رؤيـة كـل شـئ وهـو مقـام العـارف أيضـا لكن الأول أعلى لأنه نازل من عند الله والـثانى صاعد إليه والنازل قرآن والصاعد فرقان قال الله تعالى ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ (يوسف:٢) . وقـال تعـالى ﴿ إلـيه يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ (فاطر:١٠) . القرآن واحد والكلم جمع كـلمة والواحـد هـو الفرد الكثير فرد بالقرآن كثير بالفرقان وأما من رأى الله فى كل شئ فهو العـارف الجـامع لـلحق والخلـق فلـيس بمحجـوب عـن الحـق بالخلق ولا عن الخلق بالحق فـيعرف بماذا الحق حق وبماذا الخلق خلق وبماذا الخلق حق وبماذا الحق خلق وبماذا الحق لـيس بخلـق وبمـاذا الخلـق لـيس بحـق وبماذا الحق والخلق موجودان كما يعلم وبماذا الحق والخلـق موجـودان لا كمـا يعـلم وبمـاذا الحق والخلق معدومان كما يعلم وبماذا الحق والخلق معدومـان لا كمـا يعـلم إلى غـير ذلـك مـن العلـوم التى أختص بها هذا العارف دون العارفين الذيـن قـبله العـارف الذين قبله فهذا العارف الذى ينظر به تعالى إليه على ثلاثة أقسام والله ولى الهداية والإنعام .

ثـم خاطـب ﷺ المؤمـن المذكـور تنهيضـا إلى مقـام العـارف الـذى هـو أعـلى مـنه فقـال (مادمـت) أى مدة دوامك (أنت أيها) المؤمن الواقف خلف حجاب نفسك حيث أراك الله تعالى آيـة فـى الآفـاق لا فـى نفسـك ولهذا لم يتبين لك بعد أنه الحق فأنت فى مقام الإيمان بالغيب خرجـت مـن الإيمـان البدعى على الإيمان السنى وخرجت عن غى الوسواس الفكرى إلى مرتبة عـلم الـيقين (معـك) أى مـع نفسك لم يرك الله تعالى آياته فيها حتى تعلم أنه الحق بخروجك عـنها (أمـرناك) أى وجـدت أمـرنا متوجهاً علـيك بالطاعـات واجتناب المنهيات لأنك مكلف بإفـراز نفسـك عـن بقـية المخلوقـات الداخلـة تحـت تصرفنا فكلفناك بسبب ما تكلفت أنت له فوقعـت فـى الكلفة أى المشقة والتعب فى الدنيا بقيامك فى الأمر والنهى تنازع نفسك وتنازعك نفسـك وفـى الآخـرة بالحسـاب ونصب الميزان لك ووضع الصراط وإعطائك كتاب أعمالك الذى كتبته عليك الحفظة بك وأنت لا تشعر كل ذلك بسبب قيامك بنفسك فى زعمك .

(فـإذا) لطـف الله تعـالى بك وأراك آياته فى نفسك أيضاً كما أراكها فى الآفاق فعلمت أنـه الحـق (فنيـت) أى انعدمت وانمحقت بالكلية (عنك) أى عن نفسك وحينئذ (تولیناك) أى صـرنا متولـيين فـيك متصرفين فيك ظاهراً وباطناً قال الله تعالى ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا

يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾(البقرة:٢٥٧) . وقال تعالى ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ (الأعراف:١٩٦) . وإذا تولاك الله تعالى كنت وليا لله تعالى فعيلا بمعنى مفعول فتجد أمره تعالى ليس متوجها عليك وإنما هو كاشف عن طاعتك ومعصيتك المقدرة عليك الواقعة منك لا محالة ولم تكن متكلفاً بإمرا نفسك عن بقية ما هو داخل تحت تصرف ربك فلا تكليف عليك أى لا كلفة ولا مشقة عليك فى الدنيا لقيامك بربك فى امتثال الأوامر واجتناب النواهى من غير منازعة نفسك فى شئ من ذلك وفى الآخرة أنت ممن يدخل الجنة بغير حساب ولا يوزن عملك وتمر على الصراط ولا تشعر به ولا يعطى لك كتاب ولا يحزنك الفزع الأكبر قال تعالى ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (يونس:٦٢) .

(وما تولاهم) أى ما صار وليا لهم أى الصالحين من قوله تعالى ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ (الأعراف:١٩٦) . (إلا بعد فنائهم) عن نفوسهم بحيث لم يبقى لهم حركة ولا سكون ولا وجود إلا به تعالى وهو تحققهم بحقيقة قوله تعالى ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن: ٢٦ ، ٢٧) . ومن عداهم تولت عليهم نفوسهم المعادية لله تعالى كما جاء فى الخبر (عاد نفسك فإنها انتصبت لمعاداتى فإن جاهدوها كانوا ناجين وإن أطاعوها كانوا من الهالكين) .

ثم ذكر الشيخ ﷺ تنهيضاً آخر فقال (مادمت) أيها المؤمن بالغيب المحجوب بنفسك عنك (أنت) أى موجود فى نفسك مع الله تعالى وفد من الله تعالى عليك ووفقك لإرادته (فأنت مريد) تعالى حينئذ والمريد تعبه بحسب مراده فمريد الله تعالى العظيم تعبه عظيم وأعلم كل شئ من الإنسان وغيره مريد لله تعالى مقبل عليه فى عين إرادته لما سواه فى زعمه إذ لا سواه تعالى إذ كل شئ هالك إلا وجهه ولله در القائل حيث يقول:

كنار موسى رآها عين حاجته وهى الإله ولكن ليس يدربه

فمن زالت نفسه شهد وجه الله تعالى فى كل شئ هالكا فانياً وتحقق بأنه مريد لله تعالى على كل حال فى يقظته وغفلته ومن بقيت نفسه معه شهد كل شئ ولا يشهد وجه الله تعالى أبداً فلا يقدر أن يتحقق بأنه مريد لله تعالى أبداً بل لو أنصف وجد إرادته لغير الله تعالى فى عين إرادته لله تعالى عنده والله بصير بالعباد وقد خطر لى من النظم فى هذا الوقت قولى:

وما الكمال سوى علم يريك ما أنت فيه فأنت الكامل الناقص

فلا ترم غير ما بالحس تشهده من حالك الآن ياذا الساكن الراقص

عســى يحــل عقــال العقــل عــاقده عســى شعور شـهود يرسل العاقص

(**فإذا أفناك**) الحق تعالى وفيه إشارة إلى أن الفناء والبقاء ليسا داخلين تحت مقتضى إرادتك واختيارك بل هما حالتان يقيم الله تعالى في أحدهما من أراد من عبادة قال تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّـهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (فاطر:٢) . (**عنك**) أي عن نفسك ووجودك بأن أراك آياته في الآفاق والآيات عين الآفاق فأخرجك عن الآفاق إلى آياته ثم أراك آياته في نفسك والآيات عين نفسك فأخرجك عن نفسك إلى آياته فعلمت أنه الحق قال تعالى ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ (العنكبوت:٤٩) . وهذه من آيات القرآن العظيم الذى نزل به جبريل الأمين على قلب نبينا محمد ﷺ ولم يزل ينزل إلى يوم القيامة تملك الإلهام الذى هو أعوان جبريل عليه السلام على قلوب العلماء الذين هم ورثة محمد ﷺ فإذا نزل عليهم لم يكن غيرهم . والى هذا المعنى أشار قدوة المحققين الشيخ محيى الدين ابن العربى رضي الله عنه بقوله :

أنــا القــرآن والســبع المــثانى وروح الــروح لا روح الأوانـــى

فــؤادى عــند موجــده مقــيم يناجــيه وعــندكم لســانى

إلى أخر الأبيات (**فأنت مراد**) للحق تعالى حينئذ فانه ما أفناك إلا لأنه أرادك كما أنه من أبقاء مع نفسه ما أبقاه إلا لأنه ما أراده فإن الله تعال ما أراد أحداً إلا وأخذه من نفسه إلى عنده وإذا أخذه عنده أفناه عن نفسه فلا يبقى عند نفسه بل عند ربه قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ (الأعراف:٢٠٦) . فيفهم منه إن الذين عند نفوسهم مستكبرون عن عبادته واستكبارهم هو دعوى نفوسهم معه تعالى وإذا أراك الحق تعالى فقد شملتك العناية الأزلية واختطفتك الجذبة الإلهية قال عليه السلام جذبة من جذابات الحق توازى عمل الثقلين وفى خطاب الله تعالى لموسى عليه السلام ما يشير إلى ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ (طه:٤١) . ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ (طه:٣٩) . ولله در القائل حيث قال:

وإذا العــناية لاحظــتك عــيونها نم فالمخـــاوف كـــلهن أمـــان

واصـطد بهـا العـنقاء فهـى حـبالة وافـتد بهـا الجـوزاء فهـى عـنان

ولنا من النظم فى هذا المعنى:

رب شـــخص تقـــوده الأقـــدار لـــلمعالى ومـــا بـــذاك اختـــيار

غــــافل والســـــعادة احتضـــــنته وهـــو مــــنها مســـتوحش نفـــار
يـــتعاطى القبـــيح عمـــدا فـــيلقاه جمــــــيلا وفلســـــــه ديـــــنار
كـــلما قـــارف الذنـــوب أتـــته توبـــــة طهـــــرته واســــتغفار
وعلـــيه إن زل عـــين مـــن اللـــ ـــــه تقـــية ويســـــتر الســـــتار
فهـــــو بـــــالله دائمـــاً يترقـــى لا بـــه حيـــث تشـــرق الأنـــوار
وفـــتى كـــابد العـــبادة حـــتى مـــنه قـــد مـــل لـــيله والـــنهار
يتســـامى بالفكـــر والذكـــر قصـداً وهـــو نـــاه وعـــنه شـــط المـــزار
يفعـــل الخـــير ثـــم يلقـــاه شـــراً وإذا رام جــــنة فهـــــى نــــــار
حكـــم حـــارت الـــبرية فـــيها وحقــــيق بأنهــــا تحــــتار
وعطايـــا مـــن المهـــيمن دلـــت أنـــه الله فـــاعل محـــتار

ثـم ذكـر الشـيخ ﷺ تنهيضـاً آخـر فقال (**اليقين**) بوجود الله تعالى (**الأدوم**) فى كل حـال مـن الأحـوال بعـناية الله تعـالى إنما هو (**غيبتك**) أيها المؤمن بالغيب المحجوب بنفسه (**عـنك**) أى عـن وجودك بنفسك (**ووجودك**) فى نفسك (**به**) أى بالحق ﷻ فتبقى غائباً عن وجـودك الذى بك حاضر عند وجودك الذى به ﷻ وفى الحقيقة لا وجود لك بك وإنما أنت مـتوهم أن لـك وجوداً بك فإذا زال عنك توهمك أن وجودك بك ظهر لك أن وجودك به تعالى مـن قـبل ولكـن أنت غائب عنه ولهذا أنت مؤمن بالغيب جاحد للشهادة فإذا رجع وجودك بـه تعالى صرت مؤمناً بالغيب والشهادة وكما أن ربك عالم الغيب والشهادة فأنت حينئذ عالم الغيـب والشـهادة فيجـب عليك أن تتكلم بالشهادة وهى شهادة الحق تعالى أى شهوده تعالى فى كل شئ قال تعالى ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ (البقرة: ٢٨٣) . أى بخـيل فـان الله تعـالى يقـول عـن نفسه ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ (التكوير: ٢٤) . فأنت حينئذ تحت حكم ربك عليك والله صانع بك ما يشاء .

(**فكـم بـين ما**) أى المؤمن الذى والقياس من لاستعمالها فيمن يعقل وما فيمن لا يعقل قال المتنبى فى أبيات له:

وإنمـا نحـن فـى جـيل سواسـيه شر عـلى الحر مـن سقم عـلى بدن

فـي كـل أرض وطئـنا مـنهم أممـا تخطى إذا جئت فى أستفهامها بمن

يعـن إذا أسـتفهمت عنهم بقولك من هم فقد أخطأت فإن من لمن يعقل وهم لا يعقلون وإنما يقال فيهم ما هم ولما أنشد بعض الشعراء قوله :

يـا حـبذا جـبل الـريان مـن جـبل وحـبذا سـاكن الـريان مـن كانـا

قـال له بعض من حضره وإن كان ساكن الريان قرودا فقال له لو أردت ذلك فقلت من كـان فـالجواب أمـا عـلى عـدم الفـرق بيـنهما كمـا زعمه بعضهم وأستدل عليه بقوله تعالى : ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾(النساء:٣). وقوله تعالى : ﴿ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾(الكافرون:٣) . وقوله تعالى ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ (الواقعة:٢٧) ونحو ذلك .

ويمكـن أن يقـال لما كانت النساء أنقص عقولا من الرجال أتى بما فى موضع من فيهن للإشـارة إلى ذلـك مجازا ولما كان الله تعالى لا يوصف بالعقل لكونه ليس من صفاته تعالى قيل مـا أعبد ولم يقل من أعبد والاستفهام عن حالة أصحاب اليمين تفخيما لها والتقدير ما حالة أصحاب اليمين وكذلك جميع ما ورد من ذلك مؤول على حسب ما يليق به وإما أن يقال فى كـلام الشـيخ قـدس الله سره هنا أن المؤمن والعارف لما كان حالهما فى الإيمان والمعرفة ليس مبنـيا عـلى مقتضـى العقـل ولا مسـتفاداً منه بل هو شرع النبى محض أجراهما مجرى من لا يعقـل حيـث لم يسـتعملا آلـة العقل فيما أتصفا به من الإيمان والمعرفة فذكر فيهما ما موضع من والتقدير كم بين المؤمن بالغيب الذى (يكون) أى يوجد ويتكون (بأمره) أى بأمر الله ﷻ الـذى قام به كل شئ فإن ذلك الكائن بأمره تعالى موجود عند نفسه غائب عن شهود أمر الله تعـالى المسـك له غير أنه مؤمن بذلك إيماناً بالغيب (وبين ما) أى العارف الذى (يكون) أى يوجـد ويـتكون (بـه) أى بالحق ﷻ الذى هو غالب على أمره قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْـرِهِ وَلَكِـنَّ أَكْـثَرَ الـنَّاسِ لا يَعْلَمُـونَ ﴾ (يوسف:٢١) . وعـدم علمهم لقيامهم بأمره لا به فهم مغلوبـون لا غالـبون والله غـالـب علـيهم والقـائم بـه تعـالى غالب لا مغلوب قال تعالى ﴿ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (الصافات:١٧٣) .

واعـلم أن أمر الله تعالى هو قيوميته لجميع خلقه ملكا وملكوتا والقيومية من جملة صفاته تعـالى والقـيوم أسمـه تعـالى ومعلـوم أن أسمـاء الله تعـالى وصـفاته لا عـين ذاتـه ولا غـير ذاتـه فالصـفاتيون هـم الأسمـائيون القائمون بصفات الله تعالى وأسمائه وهم أولو الأمر الواجب أطاعتهم بعـد إطاعة الله ورسوله وأعلى منهم الذاتيون وهم القائمون بذات الله تعالى المتقدمون فى وجوب

الإطاعة على أولى الأمر فإن قلت كيف قاموا بذات الله تعالى وذاته تعالى غنية عن العالمين .

قلت : لما استهلكهم الفناء عن وجودهم غطسوا فى بحار الصفات الإلهية فقذفتهم أمواج الأسماء الإلهية إلى ساحل الذات العلية فاختاروا وجود ربهم على وجودهم وآثروا ذاته على ذواتهم فناب وجوده تعالى عن وجودهم وقامت ذاته مقام ذواتهم فاستغنوا به عنهم فهم هو وهو عينهم كما قلت فى أبيات لى فى ديوانى:

وكلهم هو فاسمع وهو عينهم إن الزجاج له بالشمس تلوين

وأما الصفاتيون والأسمائيون الذين هم أولو الأمر فهم على قسمين منهم العارف ومنهم المحجوب فالعارف يقال فيه ذاتى لغلبة محق الذات العلية له فى بعض الأوقات فيصير قيامه بها ويقال فيه صفاتى أسمائى لغلبة أحكام الصفات والأسماء عليه فى أكثر الأوقات وهذا الصفاتى الأسمائى هو مراد الشيخ ﷺ هنا فى قوله يكون به والمحجوب مراده بقوله يكون بأمره ثم قال فى بيان ما ذكر (إن كنت) أيها المريد (قائما بأمره) ﷻ إيماناً غيبياً وأنت محجوب بنفسك عن شهود حقيقة الأمر الذى أنت قائم به ولا تشعر (خضعت) أى ذلت وانقادت وأطاعت (لك) حينئذ جميع (الأسباب) الشرعية والعقلية والعادية بحيث كل أمر تقصده من عبادة أو علم أو رزق ونحو ذلك تيسر لك سببه من غير صعوبة عليك فأنت قائم بأمر الله تعالى لنفسك لا لله تعالى ففرضك نفسك وهى حجابك بينك وبين ربك فناسب أن تخضع لك الأسباب التى هى حجب بينك وبين المسببات وأيضا قمت بالأمر الإلهى الذى هو واسطة بينك وبين ربك فخضعت لك الأسباب التى هى وسائط بينك وبين المسببات فكان ذلك جزاء وفاقا .

(وإن كنت قائما به) أى بالحق ﷻ عن كشف وشهود (تضعضعت) أى تحركت وأضطربت فضلا عن خضوعها وانقيادها (لك) أى لأمرك الذى هو أمر الله تعالى حيث أنك قائم به تعالى (الأكوان) أى الموجودات جميعها .

وأعلم أن الكائنات بأسرها ما وجد منها وما لم يوجد بعد مستندة إلى الحق تعالى فى وجودها فلزم من ذلك أن تكون قائمة بأمره تعالى وهى مترتبة فى الوجود فالسابق منها يسمى سببا لما هو بعده ولما هو مترتب عليه فمن قام بأمر الحق تعالى عن غفلة وحجاب قام بنفسه عند نفسه فسمى السابق سببا والمسبوق مسببا فتخضع له الأسباب باعتبار أمر الله تعالى الذى هو قائم به وخضوعها لأمره تعالى لا لنفس ذلك العبد ولكن لما كانت نفس ذلك

العبد قائمة بأمره تعالى إلتبس عليه الخضوع فظنه لنفسه فخوطب من جنس ما ظن فقيل خضعت لَه الأسباب كما أن بعض الناس لما اشتغلوا بالتكاثر والتهوا به عن شهود الحق تعالى وظنوا أن التكاثر مؤثر مستقل بالوجود مع الله تعالى خاطبهم الله تعالى من جنس ما هم فيه من الظن فقال ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ (التكاثر:١) . والقياس أن يقال ألهيناكم بالتكاثر والله تعالى يقول (أنا عند ظن عبدى بى) يعنى إن ظن بى إنى منفرد بالتأثير وجدنى كذلك وإن ظن أن معى مؤثراً غيرى أريته الأمر كذلك إضلالا لَه ثم خاطبته على حسب ما رأيته ثم قال فليظن بى خيراً أى فليظن الإنفراد لنا بالإيجاد ونحو ذلك من الخير فإن الحق تعالى ما تجلى لشئ إلا بما أستعد لَه ذلك الشيء كما سئل الجنيد ﷺ عن المعرفة والعارف فقال لون الماء لون إنائه يشير إلى ما ذكرناه .

ومن قام بأمر الله تعالى عن كشف وشهود قام بالحق تعالى فلم يسم سبباً ولا مسبباً فتضعضعت لَه جميع الأكوان القائمة بأمر الله تعالى وتضعضعها إنما هو للحق تعالى الذى قام به هذا العبد لا لهذا العبد ولما عرف ذلك هذا العبد جاءه الخطاب من الله تعالى ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾ (الجاثية:١٣) . والتسخير إنما هو لله تعالى لا لغيره ونسبته للعبد كما أن السجود من الملائكة عليهم السلام لله تعالى ونسبته لآدم ﷺ لقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ (البقرة:٣٤) . وهذا هو التسخير بعينه والملائكة هى ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه وإلى حقيقة آدم ﷺ ترجع حقيقة الإنسان الكامل والممتنع عن السجود لَه إبليس والشياطين عليهم اللعنة وسبب امتناعهم عن السجود أنهم ليسوا منه تعالى كالملائكة لانقطاعهم عنه تعالى بسبب غلبة عالم الخلق فيهم على عالم الأمر والملائكة الغالب فيهم عالم الأمر على عالم الخلق ولهذا لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وقال تعالى عنهم ﴿ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنبياء:٢٧) .

ثم شرع الشيخ ﷺ فى بيان المقامات السلوكية على ترتيبها بحسب الوجدان فى طريق الله تعالى فقال (أول المقامات) جمع مقام وتقدم الكلام عليه يعنى أول ما يجد السالك إلى الله تعالى بعد مفارقة طور العلم الظاهر يجد فى قلبه (الصبر) وهو تحمل النفس جميع الشدائد والمصائب دون الشكوى إلى أحد وتجرع مرارات الأمور مع مكابدة الطاعات ظاهراً وباطناً وإخلاء الصدر من الضجر ومن الشعور بكون نفسه متحملة ومتجرعة لَه وهذا المقام لا يتم غالباً إلا لأهل الجذبة الإلهية بحيث لا يشعر العبد معها بنفسه أنها فى ضيق أو رخاء وذلك لا يحصل إلا بتوفيق الله تعالى من غير تعمل ولا تكلف (على) جميع (مراده) أى مراد

الحق تعالى لأنه الفاعل المختار والحاكم الذى لا معقب لحكمه وهو الواحد القهار ولا يكون ولا يوجد إلا ما أراده وأختاره من الخير والشر والنفع والضر أن صبر العبد وأن لم يصبر فالصبر لا يزيد من المصائب والشدائد والضجر ولا ينقص شيئاً منها .

قال تعالى ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ (النحل:١٢٦) . يعنى صبركم خير من عدمه وأما مراد الله تعالى فهو كائن لا محالة صبرتم أو لم تصبروا وقال تعالى ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ (النحل:١٢٧) . يعنى أن الصبر أمر يقدره الله تعالى عليك فينزله إليك عند المصائب أن كان لك صبر فى علمه وتقديره وان كان لك ضجر أنزله إليك من غير صبر فأنت موضع لجريان الحكم الأولى والتقدير فأمره لك بالصبر فى قوله تعالى لك اصبر هو تكوين الصبر فيك تكويناً خاصاً كما أخبر تعالى عن تكوينه العام بقوله ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (النحل:٤٠) . فقوله كن أمر بالتكوين فيكون ذلك الشيء المأمور بالتكوين لا محالة من غير مخالفة للأمر لأنه لما كان بالله تعالى فلا يمكنه المخالفة وهو قوله وما صبرك إلا بالله فى التكوين الخاص وكذلك القول فيمن لا يصبر وضجر فالله تعالى يقول له أضجر وما ضجرك إلا بالله ولكن لم يرد الإخبار عن ذلك لأنه شر والشر يستر ولا ينسب تكوينه إلى الله تعالى إلا بطريق العموم كما قال تعالى ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ﴾ (النساء:٧٨) . وقال تعالى ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (الرعد:١٦) . وقال تعالى ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ (الفرقان: الآية٢) وقال تعالى ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ (الرعد:٨) . إلى غير ذلك من الآيات الصريحة بأنه ﷻ مكون كل شئ من خير وشر ونفع أو ضر لجميع ما هو واقع فى الدنيا مما هو مقدر فى الأزل من خير أو شر فهو بإرادة الله تعالى سواء كان مع ذلك برضاه كالطاعات أو بغضبه وبسخطه كالمخالفات وكله واقع صادر من المخلوقات بتكوين الله تعالى له وتكوينه تعالى لشئ إنما هو بطريق الأمر لذلك الشيء ثم إن ذلك الشيء يمتثل ما أمره الله تعالى به ولا يمكنه مخالفته أبداً على كل حال ثم إن الله تعالى أخفى قضاه وقدره عن خلقه لتقوم بذلك الحجة على الخلق .

ولا فرق فى الحقيقة بين أمر التكوين وأمر التكليف غير أن أمر التكوين عام وأمر التكليف خاص وأمر التكوين مجمل وأمر التكليف مفصل أما أمر التكوين فهو قوله ﷻ ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (النحل:٤٠) . والشيء مطلق من غير تخصيص فهو شامل لكل شئ فلا عصيان لشئ مطلقاً من هذا الوجه وأما أمر التكليف فهو قوله تعالى : ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (النساء:١٣٦) . وقوله تعالى ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ (البقرة:٤٣)

وقولـه تعـالى ﴿ وَلا تَقْـرَبُوا الزِّنَى ﴾ (الإسراء:٣٢) . يعنى كفوا عنه والنهى أمر فى المعنى لأنه لطلـب الكف عن الشيء لا بمعنى العدم وهذا الأمر الذى هو أمر التكليف إنما خوطب به فى الحقـيقة من قدر الله تعالى عليه امتثاله فى الأزل فقوله تعالى ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ خطاب لمـن قـدر الله عليهم الإيمان وهو تفصيل لقوله تعالى للإيمان المقدر عليهم كن فيكون وكذلك قوله تعالى ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ خطاب لمن قدرت عليهم الصلاة ونحو ذلك وأما من لم يقدر عليهم الإيمـان والصـلاة وقـدر عليهم الكفر والكف عن الصلاة أو نسيانها فتفصيل تكوين ذلك فيهم وتقديـره كـن كفـراً فـيهم فـيكون وكـن كفاً عن الصلاة فيكون وكن نسياناً لها فيكون ولكن لا يقـال هكـذا فـى تفصيل أمر الله تعالى وأن كان هذا صواباً فى حقيقة الأمر تأدباً مع الله تعالى لأنـه تعـالى مـا أنـزل هكذا فى تفصيل أمره لأن الشريعة تفصيل أمر الله للسعداء فقط لأن كل شـريعة تفصيل لأمر مجمل أمر به نبيها المرسل فيها فينبئها إلى قومه وكل نبى قومه السعداء مـنهم فشـريعته تفضيل أمرهم الذى هو أمره وأما الأشقياء فمعلوم تفصيل أمرهم بالمخالفة لأمر السـعداء وبضدها تتبين الأشياء فإنذار الأنبياء عليهم السلام لأممهم وتبشيرهم إنما هو السعداء فقـط لأن أمـر الله تعـالى للسـعداء والأشـقياء إنذارهـم وتبشيرهم وقع من الأنبياء عليهم السلام بطريق المفهوم لجل إلزام الحجة عليهم من الله تعالى .

قـال تعـالى ﴿ لَقَـدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يس:٧) . أى على أكثر الخلـق وهـم الكافـرون فيسـتحيل إيمانهم حينئذ لإخباره تعالى عنهم بعدمه وأن كان إيمانهم ممكناً فى نفسه ثم قال تعالى فى سبب عدم إيمانهم ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَـانِ فَهُـمْ مُقْمَحُـونَ ۝ وَجَعَلْـنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِـرُونَ ﴾ (يس:٨ ، ٩) . وهـذا كـناية عـن تكويـن ضد الأيمان فيهم وضد التوحيد ثم أخبر تعـالى عـنهم أن أنـذاره وعدمـه سـواء فـى حقهم لأن أمرهم أمر آخر غير أمر السعداء فقال : ﴿ وَسَـوَاءٌ عَلَـيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُـمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يس:١٠) . ثم صرح ﷺ بأن أنذاره أنمـا هو للسعداء فقط حيث قال ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِـرَةٍ وَأَجْـرٍ كَـرِيمٍ ﴾ (يس:١١) وهذه أوصاف السعداء فقط ثم ضم تعالى التبشير إلى الآنذار وأشـار إلى أنـه مخصـوص بالسـعداء كـالإنذار بقولـه ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ مع أن صـدر الآيـة قولـه تعـالى ﴿ لِتُـنْذِرَ قَوْمـاً مَـا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ (يس:٦) . ففيه وقوع الانـذار فـى حق الأشقياء والجواب عنه أنه أنذار بطريق المفهوم لهم كما ذكرنا لا حقيقة الانذار حيـث لم يكـن لهـم خشـية مـنه ولا تـرك لمـا هـم فـيه فهـم ليسـوا أهله بل هم أهل التكذيب والجحـود ويؤيـد هذا ما نقله السلمى رحمة الله تعالى فى حقائق القرآن فى قولَه تعالى ﴿ اذْهَبَا

إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ (طه:٤٣) . قال ابن عطاء الله رحمه الله تعالى الإشارة إلى فرعون وكان مبعوثاً فى الحقيقة إلى السحرة فإن الله تعالى لا يرسل أنبيائه إلى أعدائه ولم يكن لأعدائه عنده من الخطر ما يرسل إليهم أنبيائه ولكن يبعث الأنبياء عليهم السلام إليهم ليخرج الأولياء المؤمنين من بين الأعداء الكفرة أهـ .

فإن قلت يلزم مما ذكرت أن أمر الله تعالى ونهيه ليس شاملا للعصاة المخالفين فيلزم أن لا يكونوا مكلفين بذلك وأن لا يكونوا عصاة ولا مخالفين وهو باطل قلت لا يلزم عدم تكليفهم بذلك الأمر والنهى وإن كان كذلك وارداً فى حق غيرهم لأنهم قائلون بموافقته بحسب العادة الظاهرة لهم ولغيرهم وأن توجه عليهم أمر بضد ذلك أو نهى عن ذلك لأن أمرهم ونهيهم الخاصين بهم لم ترد الشريعة بهما إلا إجمالا لا تفصيلا وتسميتهم عصاة ومخالفين إنما هو بالنسبة إلى ما وردت به الشريعة فقط من أمر السعداء ونهيهم قال تعالى فى أمرهم الخاص بهم ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ (الإنسان:٢٨) . فيتحصل لنا من هذا كله أن أمر الله تعالى واحد وهو أمر التكوين فقط كما قال تعالى ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ (القمر:٥٠) . وهو متوجه من الأزل على إيجاد ما قدره الله تعالى على عباده السعداء والأشقياء فالحقيقة هى معرفة هذا الأمر العام ومعرفة أطاعة جميع العباد السعداء والأشقياء له من غير مخالفة وأما الشريعة فهى بيان هذا الأمر الواحد وتفصيله فى المأمورين بحسب استعداد كل مأمور على حدة أما تفصيلا ببقائه على حاله غير أنه نقل من العموم إلى الخصوص وهو جميع الشريعة حيث وردت فى حق السعداء فقط وأما تفصيلا بمعنى البيان بطريق المخالفة لذلك الخصوص فى أمر السعداء مع ستر خلاف ذلك الخصوص من أسمه تعالى الستار وهو حال العصيان والمخالفة فى حق الأشقياء العاصين المخالفين لأمر السعداء الذى هو أمر نبيهم ﷺ قال تعالى ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ (النور:٦٣) . يعنى عن خصوص أمره بسبب خصوص أمر آخر متوجه عليهم وفى هذا القدر كفاية فى تحقيق هذا المبحث وبيانه أوضح من ذلك موكول إلى الكشف الصحيح عند أهله والله أعلم .

(وأوسطها) أى أوسط المقامات فى سلوك الطريق إلى الله تعالى بعد وجدان مقام الصبر على مراد الله تعالى أن يجد السالك فى قلبه (الرضا) أى القبول وطمأنينة السر (بمراده) ﷻ بحيث لا يجد عنده تكلفا فى قبول ذلك الذى يريده الله تعالى سواء كان خيراً أو شراً أو نفعاً أو ضراً ولا يرى فى قلبه حرجا منه قال الله تعالى فى أهل هذا المقام : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا

عَنْهُ ﴾ (المائدة: ١١٩) . وقال تعالى ﴿ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١٧٤) . وقال تعالى ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴾ (الفجر: ٢٨) . ورضاؤهم فى الحقيقة هو رضاء الله تعالى عنهم وجميع ما يريده الله تعالى خير والرضا لا يكون إلا بالخير وأما الشر فهو مفترق عن الخير باعتبار خلق الله تعالى النفوس التى هى للأرواح كالكراسى للعروش وكل عرش هو المستوى الرحمانى وكل كرسى هو موضع تدلى القدمين قدم الخير وقدم الشر وعوالم الله تعالى بعدد الأنفاس وفى كل نفس عوالم الله تعالى لا يعلمها إلا هو ويعلمها من شاء من عباده بطريق المرور به عليها فيجد عوالم أنفاس أهل اليقظة كلها ملائكة مسبحة مقدسة لله تعالى وعوالم أنفاس أهل الغفلة كلها شياطين مطلقة مختلفة الأشكال والصور فيها ملائكة مسجونة بسلاسل من حديد يسبحون الله تعالى فيخلق الله تعالى من تسبيحهم ملائكة على غير صورهم مطلقة تسبح الله تعالى أيضاً بلغات الأولين قال تعالى ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل: ٨) .

(وآخرها) أى آخر المقامات بعد وجدان مقام الصبر ووجدان مقام الصبر ووجدان مقام الرضا (أن تكون) نفسك بحسب الوجدان قائمة (بمراده) ﷻ فى جميع الأحوال فيزول عنك الصبر على مراد الله تعالى والرضا بمراده تعالى فلا تجد لما يظهر لك منك أو من غيرك مشقة فتصبر على تلك المشقة ولا لذة ولا فرحاً فترضى بتلك اللذة وذلك الفرح بل تجد جميع ذلك صادراً منه تعالى على مقتضى إرادته القديمة فلا يبقى لك وصف من نفسك أبداً وتبقى أوصافك ظهور أوصافه تعالى لك على حسب استعدادك وهذا هو الإحصاء الوارد فى قول النبى ﷺ (إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة) يعنى من ظهرت عليه وأتصف بها دخل جنة الذات الأزلية وتنعم بالذات والصفات بين البرية ولنا من النظم فى هذا الباب قولنا:

يخدم العز والتفاخر بابه ... وتود العلا تمس ركابه
وله من رضا الإله وشاح ... وعليه شهامة ومهابة
والسعيد السعيد من شملته ... نظرة منه أو حباه خطابه
لك طوبى إن كنت يوماً تراه ... راضياً عنك قد أماط حجابه
واذا كان ساخطاً قل سريعا ... أنما الله ساخط فتنابه

ثم ذكر الشيخ ؓ عنه طريق السلوك إلى الله تعالى بالعلم والعمل الذى هو المجاهدة الشرعية الموصلة إليه تعالى كما قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾

(العنكبوت: ٦٩) . بقوله (**العلم**) يعنى علم الشريعة والدين المتعلق بالاعتقاد والمتعلق بالعمل على الوجه الأتم (**طريق العمل**) أى الموصل إلى العمل وملجئ إليه فى الغالب مع بقاء الإسلام إذ كل عالم عامل بما علم ولو اعتقاداً كالعالم إذا زنا مثلا فإنه تعلم أن الزنا حرام ويعتقد حرمته فاجتنابه له عمل بعلمه واعتقاده حرمته عمل آخر بعلمه .

فإذا فاته اجتنابه لم يفته اعتقاده والاعتقاد أفضل من الاجتناب لأنه من الإيمان والاجتناب الوارد من أعمال الجوارح وتارك الإيمان كافر وتارك أعمال الجوارح فاسق فلم يخل علم من عمل مطلقاً وأما الحديث الوارد بالوعيد لمن لم يعمل بعلمه وإنه معذب من قبل عابد الوثن فهو محمول على من لم يعمل بعلمه لا فعلا ولا اعتقاداً مطلقاً ولاشك فى أن كفره حينئذ أشد من كفر عابد الوثن لأنه يعبد الوثن على جهل منه وأما الكافر على علم فلا جهل منه .

(**والعمل**) بالعلم المذكور الذى هو علم الشريعة والدين اعتقاداً وامتثالا بالجوارح واجتناباً وإخلاصاً (**طريق العلم**) أى علم الحقيقة يعنى موصلا إليه وملجأ على حصوله من غير تأخير . قال الله تعالى ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾ (العنكبوت: ٦٩) . أى العاملون بعلمنا الذى أرسلنا به رسلنا لنعلمهم من لدنا علماً يوصلهم إلينا وهو العلم اللدنى الذى علمه الله تعالى للخضر عليه السلام كما قال ﷺ ﴿ **آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً** ﴾(الكهف: ٦٥) . وقال تعالى ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ** ﴾ (البقرة: ٢٨٢) . فطريق التقوى وهى العمل بعلم الشريعة والدين كما ذكرنا وهذا العلم اللدنى هو المعتبر فى مسمى العلم وهو أفضل من العلم الكسبى لأن العلم الكسبى هو علم الشريعة والدين وهو العلم بأحكام الله تعالى اعتقاداً وعملا وهذا العلم اللدنى هو العلم بالله تعالى ذاتاً وصفاتاً وأسماء وأفعالا وأحكاماً على وجه الكشف والشهود ولاشك أن العلم بالله أشرف من العلم بأحكامه لتعلق الأحكام بغيره تعالى دون العلم به ولأن الكل أشرف من البعض .

فإن قلت العلم بأحكام الله من جملة العلم بالاعتقادات الشرعية وهى العلم بالله تعالى ذاتاً وصفاتاً وأسماء وأفعالا فقد دخل العلم اللدنى فى العلم الكسبى قلت نعم العلم بالاعتقادات الشرعية داخل فى العلم بالأحكام وهو العلم بالله تعالى ذاتا وصفاتا وأسماء وأفعالا لكن لا يعتبر ذلك فى الشرع إلا إذا كان على وجه العجز والتسليم كإيمان الأكمه بالألوان فالعلم على هذا الوجه ليس بعلم إلا حكما شرعياً بل هو جهل محض بالله تعالى وتقليد الأنبياء عليهم السلام فيما جاؤا به عن الله تعالى وأما إذا كان على وجه الفهم

والدخول بالعقول فى معانى ذلك الوارد فهو بدعة وضلال وليس بعلم شرعى أصلا فأين هذا وأين العلم اللدنى الكاشف لصاحبه عن تجليات الحق تعالى فى كل شئ من غير تشبيه ولا تعطيل إلى غير ذلك من المعارف والحقائق .

فإن صاحب العلم اللدنى هو الوارث للأنبياء عليهم السلام لأن علوم الأنبياء وهبية لا كسبية والعلم الشرعى لا وهبى والعلم الكسبى علم النبى يكسبه العبد بالتعلم من عبد آخر مثله وتتداوله عقول الوسائط وتتناقله أفهام الرواة ويأخذه العالم به ميتاً عن ميت إلى رسول الله ﷺ .

والعلم اللدنى علم الله تعالى يهبه الله تعالى إلى العبد بلا واسطة وليس يناله كل عبد بل لا يحصل إلا للعبد الحى بالحياة الإلهية التارك لنفسه المقبل على ربه القائم فى باطنه وظاهره بربه لا بنفسه فهو العلم من الحى الذى لا يموت إلى الحى الذى لا يموت وصاحب العلم الكسبى عند أهل التحقيق حامل لعلم غيره وهو النبى ﷺ لا عالم وصاحب العلم اللدنى عالم لا حامل علم لأنه لا علم له من نفسه بل علمه من ربه قال تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر:٢٨) . أى العارفون به تعالى عن كشف وشهود وأما من لم يعرفه بل عجز عن معرفته فكيف يخشاه . وهل يتصور خشيته من شئ لم يعرفه وللشيخ شرف الدين بن الفارض قدس الله سره أبيات فى العلم الكسبى والوهبى من تائيته وهى قوله :

ولا تك ممن طيشته دروسه ... بحيث استقلت عقله فاستفزت

فثم وراء النقل علم يدق عن ... مدارك غايات العقول السليمة

تلقيته عنى ومنى أخذته ... ونفسى كانت من عطائى ممدتى

فعلم الدرس هو العلم الكسبى وعلم النفس هو العلم الوهبى كما قال ﷺ (من عرف نفسه فقد عرف ربه) وقال تعالى ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (آل عمران:٧٩) . أى بسبب علم الدرس حصلوا علوم النفس وكونوا ربانيين لا نفسانيين وهو قول الشيخ ﷺ العلم طريق العمل والعمل طريق العلم فالعلم الأول وعلم الدرس والثانى علم النفس فعلم الدرس وسيلة إلى علم النفس فعلم النفس مقصود فهو أفضل من خادمه الذى هو علم الدرس والله بكل شئ عليم .

(والعلم) اللدنى المذكور (طريق المعرفة) أى الموصل إليها إذ لا يعرف الله إلا الله فإذا أرادك الله تعالى علمك علماً من عنده يخصك به فتعلمه بعلمه وأما العلم الذى أمرك بتعلمه فهو علم يوصلك على معرفة عجزك عن معرفته ويوفقك على الأدب معه وعلى تقواه فإذا

تأدبت معه وأتقيته علمنك علمك بنفسه فعلمته به لا بك كما قال تعالى ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ (البقرة: ٢٨٢) .

(والمعرفة) بالله تعالى المستفادة من العلم اللدنى الوهبى **(طريق الكشف)** عن الغيب ورفع حجاب الشك والريب وقد سبق تعريف المكاشفة وهى الكشف بمعنى واحد **(والكشف)** المذكور **(طريق الفناء)** فى الحق تعالى بحيث لم يبق من العبد ولا من غيره فى بصيرته شئ ويبقى الحق وفى نفسه قائماً بالحق وهذا هو الوصول إلى الله قال النبى ﷺ فى هذا المقام (كان الله ولا شئ معه وهو الآن على ما عليه كان) . ومعلوم أن كان فى حق الله تعالى معناها الدوام والاستمرار لا المضى والانقطاع كقوله تعالى ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ (النساء: ٩٦) . أى ولم يزل مستمراً كذلك .

ثم أعلم أن هذه المقامات الستة التى ذكرها الشيخ ﷺ فى طريقة السلوك إلى الله تعالى بالعلم والعمل قد يقطعها صاحب الجذب الإلهى بالعناية الإلهية من غير كسب ولا اجتهاد ولكنه نادر فى الخلق والنادر لا حكم له وأما بالسلوك والاجتهاد والمجاهدة الشرعية فهو أمر مطرد ولابد له من مساعدة جذب الهى بعد قطع مسافة العلم الكسبى والعمل فإن الجذب الإلهى يأخذ باليد ويقتحم بالعبد ميادين المقامات وإما بلا جذب إلهى فلا يمكن الوصول إلى الله أبداً وأن أمكنه السير فى العلم الكسبى والعمل به فهو عابد وليس بسالك فإذا جذب فهو سالك وليس بعابد .

وهذه المقامات الستة المذكورة هى العلم الكسبى الشرعى ثم العمل به على الإخلاص من غير بدعة ثم العلم اللدنى الوهبى الذى ينتجه العمل مع الإخلاص الخالى من البدعة ثم المعرفة بالله تعالى ثم الكشف عن الحق تعالى فى أنواع تجلياته ثم الفناء عن كل معقول ومحسوس بحيث تضمحل رسوم النفوس .

ثم شرع الشيخ ﷺ يحث المريد على مقام الفناء وينشطه إليه فقال متكلما عن حضرة ذى الجلال لأنه فى مقام الفناء عن نفسه فهو ناطق بحسب حسه **(ما صلحت)** محبوبا **(لنا)** أيها الواصل إلى مقام الشف بفنائه بسائر الأغيار دون نفسه بل أنت محب لنا حينئذ قال تعالى ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (المائدة: ٥٤) . فمحبته لهم هى الأصل ومحبتهم له هى الفرع فما داموا مشتغلين عنه بالأغيار فهم فى قبضة نفوسهم فإذا أرتفع عنهم حجاب الأغيار زال عنهم اشتغالهم بسواه فاطلعوا على محبته لهم فوجدوا فى نفوسهم محبة له فأحبوه فكشف لهم عن كل شئ فإذا أضمحلت نفوسهم وفنيت فى محبته كشف لهم عنه فعلموا أنه يحبهم

لا هم يحبونه وتحققوا بأن شمس يحبهم أشرقت على أقمار يحبونه وأن ضياء أقمار يحبونه هو بعينه نور شمس يحبهم فوصلوا إليه ووقعوا بين يديه ولولا أضمحلال نفوسهم وفناؤهم فى محبته ما كشف لهم عن وجهه النقاب ولا فتح لهم إلى حضرة الباب ولهذا قال الشيخ قدس الله سره العزيز **(وفيك)** الواو للحال أى مستقرة فيك **(بقية)** منك **(لسوانا)** أى لغيرنا والبقية هى قيامك بنفسك وإن فنيت عن سائر الأغيار .

(فإذا حولت) عنك **(السوى)** كله بأن سعيت واجتهدت فى اضمحلال نفسك أيضا عنك **(أفنيناك)** أى ساعدناك على سعيك واجتهادك ففنيت **(عنك)** أيضا أى عن نفسك **(فصلحت لنا)** حينئذ ولولا تحويلك السوى عنك ما صلحت وهذا هو الصلاح الكامل الذى هو المفهوم من قوله تعالى ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ (الأعراف:١٩٦) . فما تولاهم إلا بعد صلاحهم ولولا صلاحهم ما تولاهم والفساد ضد هذا الصلاح وهو قيام العبد بنفسه مع ربه قال تعالى ﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ﴾ (الأعراف: ٥٦) . والأرض هى النفس كما أن السماء هى الروح والإفساد فيها بالقيام بها دون ربها وإصلاحها قبل هذا الإفساد هى الفطرة التى فطر الناس عليها . وقال تعالى ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ (الروم:٤١) . أى بسبب ما كسبت أيديهم من الأعمال التى يعملونها بنفوسهم لا بربهم فالبر بر الجسوم والبحر بحر النفوس وفسادهما ضد صلاحهما وقال النبى ﷺ **(إن فى ابن آدم مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب)** .

والمراد به هنا النفس لأن الصلاح والفساد يتأتى منها والقلب بالمعنى الخاص صلاح كله كما قال تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾(ق:٣٧) . يعنى لا نفس إذ أصحاب النفوس لا عبرة لهم بشىء لاستقلالهم بنفوسهم دون ربهم بخلاف أصحاب القلوب فإنهم مع ربهم لا مع نفوسهم **(فأودعناك)** يا أيها الذى صلحت لنا **(سرنا)** الذى به أنت صادر عنا كغيرك من الأكوان وهو غيب الذات الأقدس فى حضرة التجلى الأنفس والإيداع رفع الحجاب عن العين بعد محو نقطة الغين وظهور الواحد بعد خفاء الاثنين قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ (طه:٧) . فالسر ما به قيام الأوصاف والأسماء بالذات العلية وهو حضرة الله تعالى مما يلى الكائنات والأخفى ما لا يوصف ولا يسمى من الذات العلية وهو حضرة الله تعالى مما يلى غيب الغيب المنزه عن الظهور والبطون ولنا مما يناسب هذا من النظم فى ديواننا سحر الأحداق وبث الأشواق قولنا:

شـــرف ناســـوتي بلاهوتـــه   مـن جـل عـن نعـتي ومـنعوته
محجـب خلـف سـجف الـورى   صـدا الفـتى بنبـيك عـن صـوته
عـــنه بـــه اللـــباب مشـــغولة   تحصـــيلها دل عـــلى قوتـــه
وكـــل مـــا قـــد مـــات فـــى حـــبه   أدرك مـــا يـــرجوه فـــي موتـــه

فالناسوت الجسم واللاهوت الروح ولما نسب الله تعالى الأجسام إلى الخلق بقوله تعجبك أجسامهم قلت ناسوتي وحين نسب الروح إليه تعالى بقوله ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ (الحجر:٢٩) . قلت بلاهوته وقولى جل عن نعتي ومعلوم أن نعتي نعته لى على مقدار ما جاء خطابه فى لسان الشرع ومنعوته هو من حيث نحن لا من حيث هو وهذا المقام الأول فى المصراع الأول هو مقام السر الأعظم الذى أشرنا إليه وفى المصراع الثانى مقام الأخفى المذكور والله أعلم بحقائق الأمور .

(إذا لم يبق عليك) يا أيها السالك فى طريق الله تعالى **(حركة)** باطنية ولا ظاهرية منسوبة فى زعمك **(لنفسك)** بحيث كنت كالميزان تنزل فيه مياه الحركات الباطنة والظاهرة من العدم إلى العدم وهو ثابت بغيره لا تصرف له فيما ينزل فيه كما قال ابن العربى ﷺ من جملة مشايخى فى طريق الله تعالى الميزاب كان ينزل فيه المطر من السقف تعلمت منه معرفة الله تعالى أو نحو هذا الكلام وفى قوله عليك إشارة إلى نسبة الحركات الظاهرة والباطنة إلى النفس أمر قهرى لا يمكن العبد التخلص منه إلا بمعونة من الله تعالى يشير إليه قوله تعالى ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ (الرحمن:٣٣) . وذلك سلطان هو المعونة من الله تعالى والنصرة والتأييد **(كمل يقينك)** فى الله تعالى باعتبار شهودك إياه فى أفعاله فيك به لا بك فأنت حينئذ كامل اليقين من العلماء الراسخين .

(وإذا لم يبق لك وجود) ظاهر **(عندك)** بأن زلت من بصرك وبصيرتك كزوال الخمر إذا صار خلا ، وطهر بعد نجاسته فان ذلك الجرم السيال باق على ما هو عليه غير أن أوصافه زالت وتبدلت بأوصاف أخر غير الأوصاف الأولى وكذلك زوالك أنت من بصرك وبصيرتك تزول أوصافك القاصرة عنك وتتبدل بأوصاف أخر كاملة فلم تكن أنت بعد ذلك با أنت زلت وظهر غيرك مكانك وهو الحق تعالى والله يرى الله **(كمل توحيدك)** حيث لا وجود لك ولا لغيرك حينئذ فى بصرك وبصيرتك . وإنما الموجود هو الله تعالى وهو كمال التوحيد إذ

لا وجـود لشـيء فـيه مع الله تعالى، فان وجودك عندك فى حالة توحيدك كان ما نعالك من كمـال التوحـيد فلما زال وجودك عنك كمل توحيدك كما أن حركتك لنفسك كانت مانعة لك عن كمال اليقين بالله تعالى، فلما زالت حركتك عنك لنفسك كمل يقينك .

(أهـل الـباطن) وهـو القلـب ومـا أشـتمل علـيه من الأسرار وأنطوى عليه من الأنوار وهم عـلماء الحقـيقة المكاشـفون عـن حقائق الأمور فى جميع الأطوار (مع اليقين) بالله تعالى فى كل شـئ عـلى الـتنزيه المطلق فلا يغيب عنهم على كل حال فهم ينظرون به إليه ببواطنهم فقلوبهم طاقـات رؤيـته على ما هو عليه فى كل شئ . كما أن أبصارهم طاقات رؤيته لابساً عليهم صورة كـل شـئ . فالباطن للباطن والظاهر للظاهر فمن نظر بباطنه إلى كل شئ رأى باطن كل شئ وهو وجـه الحق تعالى الذى قال تعالى ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ (القصص:٨٨) . ومن نظر بظاهره إلى كـل شئ رأى ظاهر كل شئ وهو ذلك الشيء الهالك قال تعالى ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْـيَا وَهُـمْ عَـنِ الْآخِـرَةِ هُـمْ غَـافِلُونَ ﴾ (الروم:٧) . وفى الآخرة يعلمون أن الله هو الحق المبين فالدنـيا كـلها أغيار للحق تعالى والآخرة لا أغيار فيها للحق تعالى بل جميع ما فيها بالله لا مع الله والدنـيا جمـيع ما فيها مع الله لا بالله ولهذا كانت ملعونة وملعوناً ما فيها إلا ذكر الله وما والاه كما ورد فى الحديث وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ (محمد:٣٦) .

وفـى هـذا الحديـث (كـل لهـو ابـن آدم حـرام إلا ثلاثة وذكرها بأنها مناضلته بقوسه وركضـه لفرسه وملاعبته لزوجته) وهذه الثلاثة لهو لكن يقصد به بقاء ابن آدم فى الدنيا إما بالشـجاعة والفروسـية فلدفع الأعداء وكف الإيذاء وأما بالملاعبة فلبقاء التناسل وتكثير الذرية فهـو لهـو بالحق لا عن الحق وما عداه حرام فالحياة الدنيا بغير الله تعالى حرام والآخرة حينئذ خـير وأبقى وأما بالله تعالى فليست الحياة فيها هى الحياة الدنيا بل هى الحياة الباقية التى لا تـزول وإنمـا يـنقل صاحبها من دار إلى دار لأنه شهيد يشهد الله تعالى فى كل شئ قال تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾(آل عمران:١٦٩) . وصـاحب هـذا المقـام قـتل نفسه فى محبة الله تعالى بأسياف المجاهدة الشرعية فى حرب أعدائـه مـن الهوى والشياطين كما يشير إليه قوله تعالى ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُـمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ ﴾ (البقرة:٥٤) . وإنما أمرهم بالتوبة أولا باعتبار أن حياتهم الدنيا لهـو ولعب عـن الحـق تعالى وكـل لهو حرام ولا خلاص لهم غلا بقتل أنفسهم فتوبتهم قتل أنفسـهم وهـو قـول الـنبى ﷺ (موتـوا قـبل أن تموتـوا) وهـو المـوت الاختـيارى قـبل الموت الاضـطرارى وهـو مـوت عيسـى عليه السلام الـذى قـال الله تعالى عنه ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ

وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ (آل عمران: ٥٥) والذين أتبعوه هم الذين ماتوا الموت الاختيارى وما عداهم هم الذين كفروا، أى ستروا الحق تعالى بحياتهم الدنيا التى هى لعب ولهو وأخبر تعالى فى هذه الآية أن أهل الموت الاختيارى هم شهداء الله تعالى فى أرضه باقون إلى يوم القيامة فوق أعدائهم من أهل اللهو واللعب كما قال تعالى ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (الأنعام: ٩١) .

(وأهل الظاهر) وهو النفس والجسم وما يحتويان عليه من الحجاب والغفلة عن الحق تعالى وهم علماء الشريعة فقط غير معرفة الحقيقة القائمون بنفوسهم فى كل ما أمتثلوه أو اجتنبوه لا الداعون إلى الله على بصيرة بل بأنفسهم (مع الإيمان) بالله تعالى إيماناً بالغيب كإيمان الأكمه بالألوان فيهم ينظرون إلى الله تعالى بنفوسهم وعقولهم فلا يرونه لأنهم ينظرون بغيره فلا يرون إلا غيره أولئك ينادون من مكان بعيد وكونهم مع الإيمان بالغيب أنهم متى فارقوه كفروا فهم واقفون مع الإيمان بالغيب لا مع الله تعالى كأهل الباطن الذين هم مع اليقين بالله تعالى فى جميع الأمور ثم بين ﷺ نقصان كل فريق منهما وكماله فى مرتبته حيث قال (فمتى تحرك) باطناً أو ظاهراً (قلب صاحب اليقين) الذى هو من أهل الباطن والمراد حركة منسوبة عنده إلى قلبه بحيث يقول فى نفسه تحرك قلبى من غير أن تكون الحركة صادرة عن ربه فى شهوده ذلك (نقص يقينه) بالله تعالى بسبب تلك الحركة التى تحركها قلبه فادعاها لنفسه وهى لربه (ومتى لم يخطر لـه خاطر) فى شئ غير شهود الله تعالى فى ذلك الشئ الذى خطر لـه شهوداً بالله تعالى لا بنفسه على التنزيه المطلق (كمل يقينه) بالله تعالى حينئذ لزوال شهود الغير من عين بصيرته واقتصاره على شهود الحق تعالى فى كل ما يشهده بالحق تعالى لا بنفسه وما أحسن قول سيدى على وفا المصرى قدس الله سره العزيز:

تجرد عن مقام الزهد قلبى ... فأنت الحق وحدك فى شهودى
أأزهد فى سواك وليس شئ ... أراه سواك يا سر الوجود

(ومتى تحرك قلب صاحب الإيمان) بالله تعالى الذى هو من أهل الظاهر حركة باطنية أو ظاهرية صادرة عنده من نفسه (بغير الأمر) الإلهى الواحد الذى به قيام كل شئ على حسب ما هو مؤمن به إيماناً بالغيب (نقص إيمانه) باعتبار تلك الحركة التى تحرك بها قلبه بنفسه لا بأمر الله تعالى فى زعمه (ومتى تحرك) قلبه (بالأمر) الإلهى لا بنفسه فى علمه كما هو فى حقيقة الأمر كذلك وإن لم يشعر (كمل إيمانه) لزوال نسبة شئ من الأشياء عنده إلى غير أمر الله تعالى الذى قام به كل شئ على حد مقتضى إيمانه بذلك إيماناً غيبياً .

وأعلم أن صاحب اليقين الذى هو من أهل الباطن لا حركة له فى بصيرته إذ لا وجود لـه عنده بل الوجود كله عنده لله تعالى وحده على اختلاف حضراته تعالى ولهذا متى تحرك قلـب صاحب اليقين نقص يقينه لكونه وجد عند نفسه بسبب حركته لنفسه ومتى لم يتحرك فيقينه كامل .

وأمـا صـاحب الإيمـان الـذى هـو مـن أهل الظاهر فله حركات فى بصيرة وله سكنات لكونـه موجـوداً عـند نفسـه وعنده الوجود قسمان، وجود الله تعالى قائم بنفسه ووجود العالم قـائم بأمـر الله، ولهـذا متى تحرك قلب صاحب الإيمان بغير الأمر الإلهى نقص إيمانه لغفلة عـن شـهود قـيام الوجـود بأمـر الله تعالى ولزعمه قيام حركته بنفسه ومتى تحرك بالأمر كمل إيمانه لجريانه على مقتضى مقامه فى قيام الأشياء بأمر الله تعالى .

ثـم بـين ﷺ الـتفاوت بـين مقـام الـيقين ومقـام الإيمان بقوله (معصية أهل اليقين) الذين يشـهدون أن الوجـود كلـه وجود الله تعالى متنوعاً بأنواع حضراته فى مظاهر تجلياته ولا يشهدون وجـوداً آخـر مـع وجـوده تعـالى، فإذا عصوا الله تعالى بشهودهم غيره فى خواطرهم فتلك المعصية سـواء ترتـب عليها فى ظواهرهم فعل أولا (كفر) بالله تعالى عندهم أى ستر للحق على ما هو عليه والكفـر فى الشريعة هو الستر وذلك لانكشاف الحق تعالى عندهم فى كل شئ وعدم التباسه عليهم فـى شـئ مـن الأشياء مطلقاً فإذا التبس عليهم مرة فى شئ ما فقد كفروه أى ستروه فتكليفهم على حسب وسعهم كما قال تعالى ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦) .

ولهذا لما كان إبليس فى هذا المقام وكان يقرره ويعلمه للملائكة أراد الله امتحان إبليس والملائكـة فأمـرهم بالسـجود لآدم عليه السلام وتقديـر ذلـك إن كنـتم فـى مقـام الـيقين بـى بحيـث تشـهدوننى فـى كـل شـئ ولا تجحدونـى فـى أى مظهـر ظهرت لكم به فاسجدوا لهذا المظهر الجديـد الذى أظهرته لكم ليتبين عندكم صحة يقينكم بى وكذبكم فى ذلك فسجد الملائكة كلهم أجمعـون لله وحـده الظاهـر لهـم بآدم عليه السلام من وراء ستر هذه النشأة الآدمية وظهر لهم صدقهم فـى شـهود هـذا المقـام لأنهـم كـانوا مشـتغلين بشهوده فى وقت تقدير إبليس لهم ذلك وتعليمه إيـاهم وأمتـنع إبلـيس مـن السـجود وظهـر لهـم وللملائكة كذبه فى شهود هذا المقام الذى كان يعـلمه لهـم لأنـه كـان فـى وقـت تعلـيمه لهم ذلك مشتغلا بالتعليم غائباً عن الشهود بعكس ما كـانوا فـيه فأظهـر الله تعالى ذلك من إبليس بإخباره عن نفسه حيث ﴿ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴾ (الإسراء: ٦١) . مع أنه ما أمر أن يسجد لمن خلقه الله تعالى من الطين وهو آدم عليه السلام بـل أمـر أن يسجد لله تعالى الظاهر له على زعمه فى كل شئ لا لغيره تعالى على مقتضى ما

كـان يـزعم مـن مقـام الـيقين فـي شـهود الله تعـالى وحده فى كل شئ وعدم شهود شئ معه تعـالى، فأظهر الله تعالى أنحجابه عن الصدق فى هذا المقام لما كان يعلمه للملائكة امتحاناً من الله تعالى وأظهر الله تعالى صدق الملائكة عليهم السلام فى هذا المقام بالفعل حيث سجدوا فى الحال مبادرين لما أمرهم الله تعالى على حسب مقامهم الذى كانوا فيه وهو شهودهم الله تعالى فى كل شئ وعدم شهود شئ معه تعالى، وللشيخ الأكبر ﷺ فى هذا المعنى من أبيات قوله :

لـــو أن إبلـــيس رأى مـــن آدم نـــور خمـــياها علـــيه مـــا أبـــى

وقال الشيخ شرف الدين ابن الفارض ﷺ وأرضاه .

ولـــو خطـــرت لى فســـواك إرادة عـلى خاطـرى سـهواً قضـيت بردتى

فقولـه قضيت بردتى يعنى على مقتضى مقامى الذى أنا فيه الآن وهو مقام اليقين فى شهود الله تعالى وعدم شهود شئ معه تعالى وكانت هذه الردة حينئذ كردة إبليس كما ذكرنا.

(ومعصـية أهـل الإيمـان) الذين يشهدون أن الوجود كله قائم بأمر الله تعالى وهو غير وجـود الله تعالى ووجـود الله تعـالى وراء ذلـك يؤمـنون إيمانـاً بالغيـب فـإذا عصوا الله تعالى بشـهودهم شـيئاً قائمـاً بغـير أمـر الله تعـالى فـتلك المعصـية عـندهم سـواء ترتـب علـيها فعل بجوارحهـم أولا (نقـص) فـى إيمـانهم ذلـك ولـيس بكفـر عـندهم حيث أنهم فى حال كمال إيمـانهم يشـهدون وجـوداً آخر وهو وجود العالم غير وجود الله تعالى قائماً بأمر الله تعالى ولم يكـن ذلـك عـندهم كفـراً بسبب جعلهم هذا الوجود الآخر الذى هو وجود العالم قائماً بوجود الله تعـالى لا بنفسـه وكـان هـذا وسعهم فى ذلك فكلفهم الله تعالى به فإذا خرج عن شهودهم ذلـك الشـيء ولم يجعلـوه قائمـاً بأمـر الله تعـالى بل بنفسه كان هذا نظير جعلهم هذا الوجود الآخـر غير وجود الله تعالى فأوجب نقصان إيمانهم كما أن مقام إيمانهم الكامل ناقص بالنظر إلى مقـام أهـل الـيقين الكـامل وليس النقصان عندهم بكفر لهبوط مقامهم عن مقام أهل اليقين ومن هنا قيل حسنات الأبرار سيئات المقربين .

(المـتقى) لله تعـالى فـى كـل فعل أو ترك أى المحترز منه تعالى بفعل ما أمره وترك ما نهـاه عـنه مـع الإخـلاص فى ذلك (مجتهد) فى تقواه ليلا ونهاراً على كل حال ومتى ترك اجـتهاده فـى ذلـك فلـيس بمـتقى بـل هو فاسق حينئذ إن أعتقد ما يتقيه حقا وإلا فهو كافر فالهـبوط من مقام التقوى إما إلى الفسق وإما إلى الكفر نعوذ بالله تعالى وهذا مقام عامة المؤمنين بعد مقام توبتهم وأصحاب هذا المقام هم أهل العلم والعمل .

(والمحب) لله تعالى في عين محبته لكل شئ إذ كل شئ هالك في بصيرته إلا وجه الحق تعالى فمحبته لكل شئ هي محبته للحق تعالى في جميع حضراته الظاهر بها على حسب إدراكه (متكل) على الله تعالى حق الاتكال في جميع أموره الدنيوية والأخروية ظاهرا وباطناً على كل حال وذلك لأن المحبة أول طور من أطوار المعرفة وآخر طور من أطوار العلم والعمل فالعلم والعمل ينتج المحبة والمحبة تنتج المعرفة فصاحب العلم والعمل مجتهد وصاحب المحبة تارك الاجتهاد لاتكاله على محبوبه الفاعل به ما يشاء والحاكم عليه بما يريد حتى لو أجتهد وترك أتكاله ساعة رجع إلى مقام المتقى وليس بمحب حينئذ .

(والعارف) بالله تعالى الذى أنتجت لَه محبته لله تعالى معرفته به تعالى وأنتج لَه علمه وعمله محبته لله تعالى فهو صاحب المرتبة الثالثة علم وعمل فأحب فعرف ولو لم يعلم ما عمل فأحب فعرف ولو لم يعلم ما عمل ولولا إنه علم وعمل ما أحب ولولا إنه أحب ما عرف فالعلم شرط العمل والعمل شرط المحبة والمحبة شرط المعرفة فالمراد بالعلم العلم بالله وبأحكامه وبالعمل العمل مع الإخلاص وبالمحبة محبة الحق تعالى وبالمعرفة المعرفة به تعالى فكم من عالم ليس عالما بالله تعالى ولا بأحكامه وكم من عالم بالله تعالى وبأحكامه غير عامل بذلك أو عامل بغير ما علم من ذلك جهلا منه بكيفية العمل أو عامل بذلك على وجهه غير مخلص في عمله لله تعالى أو مخلص في ذلك بغير دوام فلا يصل بسبب ذلك الانقطاع إلى مقام المحبة فلا يحصل على المعرفة وكم من محب التبست عليه محبته بمحبة ما سوى الحق تعالى فظن أن محبته لغيره تعالى أو علم من محبته لَه تعالى لكن بحسب ما يعلم ذلك الشىء الذى أحبه فكفر بالحق تعالى وهو لا يشعر فانطمست بصيرته عن معرفة الله تعالى ولنا من النظم في هذا المعنى من أبيات في ديواننا في قولنا:

قف ساعة حتى أعلمك الهوى	يا من يبيت والهوى هو عابد
إن المحبة فيك كدر صفوها	جهل بمن تهوى لأنك جاحد
فلو أنمحى عن عين ناظرك السوى	لرأيت من لهواه أنت القاصد
لكن عيونك عن مرادك في همى	وتظل تجحد ذاته وتعاند

(ساكن) لا حركة لَه من نفسه في باطنه ولا في ظاهره وقد زال أجتهاده بمحبته وزال أتكاله بمعرفته فهو ساكن لا مجتهد ولا متكل حتى لو ترك سكونه رجع إلى مقام المحبة وزال عنه طور المعرفة الذى لا حركة لَه فيه من نفسه .

(والموجـود) بـربه (مفقـود) عـن نفسـه فوجوده فقده فلا حركة ولا سكون فكما زالت عـنه الحـركة زال عـنه السـكون أيضاً فى مقام الفقد وقام وجود الحق تعالى مقام وجوده فهو الموجود المفقود وهذا نهاية الوصول إلى الله تعالى ومتى ترك فقده رجع إلى مقام المعرفة .

ثـم بـين ﷺ أحوال أهل هذه المقامات الأربعة مقام التقوى ومقام المحبة ومقام المعرفة ومقام الفقد فقال (لا سكون) ظاهراً ولا باطناً (لمتقى) عن الحركة لتقواه فهو مجتهد دائما فى الـتقوى امتثالا واجتناباً . (ولا عزم) ولا ضعيفا (لمحب) بل هو متكل على محبوبه دائماً فى كـل حـال لا يحـب إلا ما أحبه له محبوبه (ولا حركة) فى الظاهر ولا فى الباطن (لعارف) بـل هـو سـاكن دائمـاً تحـت سـطوات القـدرة الإلهية (ولا وجود) فى البصر ولا فى البصيرة (لمفقـود) بـل الموجـود عنده هو الله تعالى وحده على كل حال فالمتقى مشغول دائما باجتهاده فـى مرضاة من اتقاه والمحب مشغول بإتكاله على محبوبه والعارف مشغول بكونه إلى معروفه والموجود مشغول بفقده فى وجود من أوجده والله تعالى من وراء جميع ذلك محيط .

ثـم شـرع قـدس الله سره فـى تفضـيل مقـام المحـبة عـلى مقام اليقين فقال (ما تحصل المحـبة) الإلهية الحقيقية التى هى موجودة فى كل شئ من إنسان وغيره لكن من وجدت فيه سـترت عـنه بصـور الأشـياء فلـو أنجلت مـرآة القلب لزالـت صـور الأشـياء وتطهرت المحبة الحقيقية الإلهية من نجاسة شرك الأغيار كما قال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ (التوبة: ٢٨) . يعـنى نجاسـة الشـرك (إلا بعـد) حصـول (اليقين) بالله تعالى فى القلب واليقين يرفع عن عـين البصـيرة أستار جميع الأغيار فتنمحى صور الكائنات من لوح النفس فترجع النفس قلباً والقلـب روحـاً والـروح أمراً إلهياً والأمر الإلهى يرجع إلى الله وإلى الله تصير الأمور وعند ذلك تظهـر المحـبة الإلهـية فى العبد بعد محو العبد فتكون محبة الحق للحق وهى دين أهل الله تعالى كما قال الشيخ الأكبر ﷺ من أبيات له:

أديـن بديـن الحـب أنـى توجهـت ركائـبه فالحـب ديـنى وإيمـانى

وقال الشيخ شرف الدين بن الفارض قدس الله سره العزيز:

وعـن مذهـبى فـى الحب مالى مذهب وان ملـت يومـاً عـنه فارقـت ملـتى

ثـم بـين مقام المحبة بقوله (المحب الصادق) فى محبة الله تعالى (قد خلا) أى تفرغ (قلـبه ممـا سـواه) أى سـوى نفسه بعد خروجه عنها فهو محب لنفسه بعد فنائه عن نفسه فالحق محب للحق كما يشير إليه قول ابن الفارض قدس الله سره بقوله :

فكنت بها صباً فلما تركت ما أريد أرادتني لها وأحبت

فصرت حبيبا بل محبا لنفسه وليس كقول مر نفسي حبيبتي

ومن قول ابن العربي ﷺ:

حقيقتي همت بها وما رآها بصري

الخ الأبيات

ولي من النظم في هذا المعنى من أبيات قولي:

وعندي إلى رؤيا جمالي تشوق كثير وما عشقي لغير حقيقتي

ويالهف أحشائي على حسني الذي فؤادي به صب ويا فرط لوعتي

أحن على ذاتي صباحا وفي المسا ووغاية قصدي في العوالم رؤيتي

وقد وعدتني اليوم نفسي بوصلها غداً فمتي مني تقوم قيامتي

وأرفع عن وجهي خماري مجرداً ثيابي عن ذاتي وأهتك سترتي

ويجوز أن يكون الضمير في قوله مما سواه راجعا إلى محبوبه المفهوم من ذكر المحب وأن لم يتقدم له صريح ذكر لكن يلزم عليه أن يكون عنده مغايرة بينه وبين محبوبه فلا يخلو قلبه مما سواه وهو عنده سوى محبوبه **(ومادام عليه)** أي على المحب الصادق **(بقية محبة لسواه)** أي لسوى المحب الصادق من حيث أنه عين محبوبه والسوى صادق بالمحب من حيث هو في نفسه **(فهو)** أي ذلك المحب الصادق **(ناقص المحبة)** حينئذ إذ وجدت فيه محبة لسوى محبوبه فهو يعتقد وجود شئ سوى محبوبه ولا وجود لشئ سوى محبوبه في حقيقة الأمر كما قال النبي ﷺ أصدق كلمة قالها شاعر لبيد:

ألا كل شئ ما خلا الله باطل

والباطل عدم والعدم لا وجود له وإنما الوجود للحي القيوم ظاهر بمظاهر أسمائه وصفاته متحولا في أطوار تجلياته كما ورد في حديث مسلم إن الله تعالى يتحول يوم القيامة في الصور وهو تحولا يرجع إلى إزالة حجب العدم كما تطرد الظلمة بظهور النور فيتبين كل مستور فثبت أن بصيرة هذا المحب حينئذ قاصرة حيث خفي عليها ظهور الحق تعالى في

طور من أطوار حضراته العلية والبصيرة القاصرة جميع شؤونها قاصرة فمحبتها قاصرة فهو حينئذ ناقص المحبة بهذا السبب .

ثم بين مقام الفقد بقوله **(من تلذذ بالبلاء)** الذى يرسله الله تعالى إليه على يد نفسه أو غيره بأن وجد للبلاء عنده فرحاً وسروراً مع أنه يقتضى الحزن والألم **(فهو موجود)** حينئذ قائم مع نفسه حيث وجد منه مقدار ما يصرف به عنه الحزن والألم ويجلب له به الفرح والسرور ولو كان مفقوداً كما يزعم عن نفسه لكان قائماً بالحق تعالى لا بنفسه والحق تعالى ما أرسل إليه ذلك البلاء إلا ليدركه به الحزن والألم كما ورد (أن عارفاً بالله تعالى جاع يوماً فبكى له مريده أتبكى من الجوع قال ما جوعنى إلا لأبكى) وورد عن النبى ﷺ (أنه بكى يوم موت ولده إبراهيم عليه السلام) ومعلوم أنه أكمل حالا من ذلك الولى الذى ضحك لما مات ابنه فقيل له فى ذلك فقال كيف لا أفرح بشئ أراده الله تعالى وقد أتفق لى هذا لما مات ابن لى وما كان لى غيره فقصد بعض أصحابى تعزيتى فى ذلك فلم أقدر أن أضبط نفسى من الفرح والسرور حتى غلب على الضحك فى ذلك فتكتمته جهدى كى لا أنسب عنده إلى قلة العقل ثم عرفت نفسى بنقصان هذا الحال حينئذ لعدم جريانى على مقتضى ما أراده الله تعالى بما جعل البلاء علامة عليه والحاصل أن العبد مادام فى مجاهدة النفس والهوى والشيطان فالتلذذ بالبلاء كمال له حينئذ فإذا غاب عن ذلك بشهود ربه فى كل شئ على التنزيه المطلق يبقى الكمال فى حقه جريانه على مقتضى طبيعته إذ لا غير عنده حينئذ فكيف يتكلف لشىء ولا شئ قال النبى ﷺ (أنا وأتقياء أمتى برآء من التكلف) وقال تعالى له عليه السلام ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (ص:٨٦) .

ونفى التكلف يقتضى جريان الأمور على حسبها فإن قلت فى هذا الذى ذكرت أتباع الهوى والاسترسال مع ما تقتضيه الطبيعة وتميل إليه النفس وهو مذموم شرعا فكيف يكون الكمال بالتكلف على غير الوجه المشروع، قلت أتباع الهوى بهدى من الله تعالى للعبد وهو رفع حجاب النفس عنه ليس بمذموم شرعاً قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ ﴾ (القصص:٥٠) . فلو أتبع هواه بهدى من الله لزالت نفسه بهداه ولم يكن أتباعه هواه مذموماً حينئذ شرعاً وهو المراد بعدم التكلف .

(ومن تلذذ بالنعمة) أيضاً ما يسدى الله تعالى إلى عبده من العطايا والمنح فى الظاهر والباطن مما يقتضى الفرح والسرور **(فهو موجود)** مع نفسه حينئذ حيث وجد منه ما يفرح به غير الله تعالى فلو تلذذ بالنعمة بربه لا بنفسه لم يكن هو موجوداً عند نفسه حينئذ وتم له

مقام الفقد إذ لم يتكلف التلذذ بنفسه إذ لا نفس لَه مع ربه لاسيما وقد نسب الله تعالى النفس إليه فى قولَه : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ (آل عمران:٢٨) . كما نسب الروح إليه أيضاً فى قولَه ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ (الحجر:٢٩) . وهذه النسبة نظير نسبة العبد كله إليه فى قولَه ﷻ ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ (الجن:١٩) وما نسب الله تعالى النفس إليه إلا بعد أن خرج العبد عنها فلو لم يخرج عنها كانت نفس العبد لا نفس الرب فلا يتم مقام الفقد حينئذ .

(فإذا أفناهم) أى أفنى الحق تعالى العارفين به (عنهم) أى عن نفوسهم بأن عرفوها فألقوها فنسبها إليه تعالى عندهم فعرفوه بها فكانت نفسه لا نفسهم فحذرهم الله تعالى منها أن ينسبوها إليهم بعد ذلك حيث قال تعالى ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ (آل عمران:٢٨) . ثم قال ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (آل عمران:٣٠) . فأخبر الله تعالى أن مصير نفوسهم إليه وأخبر أنه رؤوف بالعباد إذا تركوا نفوسهم لَه حذراً منها لعدم قدرتهم على تحمل مشقاتها فى الدنيا والآخرة (ذهب) عنهم حينئذ (التلذذ بالبلاء والنعمة) لذهاب من يتلذذ منهم بذلك وهو نفوسهم فيبقى البلاء والنعمة بأتيان العبد من جهة الرب تعالى ابتلاء وامتحاناً لَه فى مقام فقده فلا يجد أن أحداً يتلذذ بهما ولا يتألم لهما فيرجعان إلى الرب تعالى يطلبان منه مقتضاهما فى ذلك العبد فيظهر الله تعالى فى ذلك العبد مقتضاهما من الحزن والفرح فيكون العبد حينئذ قابلا ذلك بربه لا بنفسه فلا يتزحزح عنه مقام الفقد وقد ظهر بمقتضى طبعه وبشريته .

ثم شرع فى ذكر التفاوت بين مقام المحبة ومقام الفقد بأن صاحب مقام المحبة محب وصاحب مقام الفقد محبوب وشتان بينهما فقال (المحب) الصادق لله تعالى وهو الذى انجلت لَه محبته لكل شئ ولو لنفسه وذهب عنها صدأ الأشياء كلها فرجعت إلى محبة الحق للحق (أنفاسه) أى كلماته التى يتكلم بها فإن الأنفاس من فم المتكلم وهى الهواء الداخل والخارج إذا خرجت من الجوف ومرت على قوالب مخارج الحروف تصير حروفاً ثم تتركب بترتيب مخصوص فتصير كلمة ثم تترتب الكلمات فتصير كلاما وما ثم شئ غير الهواء الله تعالى الخارج من الجوف المسمى نفسا فمن هذا الشبب يعبر عن الكلمات بالأنفاس (حكمة) أى إخبار عن حقائق الأمور لا بما يظهر منها كأنفاس غيره والحكمة فى الأصل إتقان الكائنات بحيث لا يكون أتقن منها وجميع مخلوقات الله تعالى هذا وصفها كما قال الإمام الغزالى ﷺ (ما فى الإمكان أبدع مما كان ولو كان لكان) ومعناه لو فرضنا فيما يمكن

من الكائنات أشياء أبدع مما أوجده الله تعالى ويوجده فى الليل والنهار لكان هذا الموجود الآن أنقص إبداعا وكان النقص يدخل فى صفة الله تعالى القديمة وهى بديع السموات والأرض والنقص على الله محال فأبدع منها محال ثم أطلقت الحكمة على العلم بهذا الإتقان الذى فى الكائنات وهو العلم بحقائق الأشياء على ما هى عليه من قيامها بالحق تعالى وهلاكها فى وجهه تعالى إلى غير ذلك من المعارف الإلهية والحقائق الربانية وهو علم أهل الله تعالى الذى أختصهم به دون غيرهم تعليما منه تعالى لهم ذلك من غير واسطة أحد ليكون مقدمة للعلم به تعالى قال ﷻ ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ (البقرة:٢٦٩) . وقال تعالى عن داود ﷺ : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ (صٓ:٢٠) .

والحكمة ما ذكرنا من معرفة حقائق الكائنات وفصل الخطاب أى الخطاب الفاصل وهو خطاب الله تعالى نفسه بنفسه فى الأزل حيث فصل فيما لم يزل بين هذه الكائنات الخارجة من العدم شيئا فشيئا وهو العلم بكلمات الله التامات وهو عالم الأمر والحكمة عالم الخلق فيكون الذى أتاه الله تعالى لداود ﷺ هو الخلق والأمر بسبب رجوعه إلى الله تعالى والله تعالى له الخلق والأمر فصار هو أيضا له الخلق والأمر خلافة إلهية قال تعالى ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ (صٓ:٢٦) . والخليفة له ما للمستخلف .

(والمحبوب) لله تعالى وهو المفقود عند نفسه أعلى مرتبة من المحب لأن المحب طالب والمحبوب مطلوب والطالب تعبه على مقدار مطلوبه وطالب الله تعالى مطلوبه عظيم فتعبه عظيم والمطلوب راحته على مقدار طالبه ومطلوب الله تعالى طالبه عظيم فراحته عظيمة، وشتان بين التعب العظيم والراحة العظيمة، وحقيقة المحب والمحبوب فى الحضرة العلمية الأزلية ترجع إلى الله تعالى من كونه أحب نفسه بنفسه فهو المحب لنفسه وهو المحبوب لنفسه وعلى كل واحدة علامة خارجة من العدم تسمى العالم لأن غيرها يعلم بها فهى علامة عليه فالمحب من كونه تعالى محباً طالب أبداً والمحبوب من كونه تعالى محبوباً مطلوب أبداً وهما مقامان يعثوران على كل شئ فكل شئ محب لغيره محبوب لغيره وللعارف المزيه على غير العارف كما قال تعالى ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (الزمر:٩) . (أنفاسه) أى كلماته التى يتنفس عن قلبه بها من حمل المعانى (قدرة) يقدر بها على إنفاذ كل شئ أراده وذلك لأن المحب إذا كان مشغولا بتتبع أوصاف محبوبه ومنهمكا فى معرفة آثار جماله حتى صارت أنفاسه أى كلماته التى يتنفس بها عما

يجده في صدره مما هو مشغول به ومنهمك فيه حكمة يجذب بها قلب السالي عن المحبة بالإعراض عن محبوبه لاستيلاء الغفلة عليه فإن المحبوب مشغول بإظهار صفاته لمحبه ومنهمك في تعريف آثار جماله بحيث صارت أنفاسه أي كلماته التي يتنفس بها عما يجده في صدره مما هو مشغول به ومنهمك فيه قدرة يوجد بها كلما أراد إيجاده من آثار جماله وأنوار كماله .

ثم ذكر التفاوت بين مقام التقوى ومقام المحبة بقوله (العبادات) جمع عبادة وهي ما يفعله المتقي في مجاهدة نفسه طلباً لمرضاة ربه امتثالاً واجتناباً (للمعارضات) جمع معارضة اسم لما يعوضه الله تعالى للعبد جزاء على عبادته له وهي الثواب في الآخرة والنجاة من النار يعني إن العبادات موضوعة شرعا للمعاوضات سواء كان قصد بها العبد للمعاوضات أو لم يكن قصده ذلك بل أخلص فيها لوجه الله تعالى الكريم (والمحبة) أي محبة الله تعالى وحده في عين محبته كل شئ دون ذلك الشيء (للقربات) جمع قربة إسم للحالة التي يكون فيها العبد منكشف البصيرة عن تجليات الحق تعالى في حقائق الأشياء يعني أن المحبة موضوعة شرعا للقربات متى وجدت في العبد أوجبت قربه إلى الله تعالى على أنواع كثيرة فالمحبة أشرف من العبادة حيث كان وضع العبادة للمعارضة ووضع المحبة للقربة والمعارضة إرادة غير الله تعالى، والقربة إرادة الله تعالى، وأعلم أن العبادة والمحبة جهتان يتعاقبان على شئ واحد وهو القيام بأمر الله تعالى الذي قام به كل شئ امتثالاً واجتناباً وإنما يفترقان بالقصد القلبي قال النبي ﷺ (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم) . والمحبة في القلوب فنبه ﷺ بهذا الحديث على أفضلية مقام المحبة على مقام العبادة فإن القائم بأمر الله تعالى إذا عزل نفسه عن التصرف فيه وولي عليه ربه كأن يتلقى جميع ما يصدر منه من ربه فلا يجد له عملا يسميه عبادة بل يجد ذلك مننا من الله تعالى عليه لا عبادة منه لربه فيقوم مقام المحبة بلا عمل كما سيأتي في كلام المتن قدس الله سره، وإذا لم يعزل نفسه عن التصرف في أمره كأن يتلقى جميع ما يصدر منه من نفسه لربه فيجد له عملا فيسميه عبادة ويحجب عن مقام المحبة لله تعالى فيكون في مقام العبادة، وفي ظاهر الأمر لا فرق بين صاحب مقام المحبة وصاحب مقام العبادة إذ كلاهما قائمان بشيء واحد ولكن الفرق بينهما بحسب القلوب . فالله تعالى ينظر إلى قلب العابد فيجده مشتغلا بغيره تعالى معرضاً عن تلقي منن العبادات منه تعالى مدعياً أن له عملا يستحق به جزاءاً وينظر إلى قلب المحب فيجده مشتغلا به تعالى لا يلتفت إلى غيره متلقيا جميع العبادات حتى المحبة التي فيه مننا من الله تعالى عليه معترفا أنه لا عمل له فإذا خرجت خلع الإحسان والإنعام

من خزائن الحق تعالى خلع تعالى على العابد خلع المعاوضات والمثوبات وبقى المحب باهتاً لا يطلب شيئاً فيناديه الملك الحق ماذا تريد . فيقول أريد أن لا أريد ثم ينظر الملك فى أمره ماذا يخلع عليه . فلا يرى له أنسب من خلع القربات وحلل المناجاة لعلمه تعالى بأنه لا يعجبه شئ غير ذلك إذ كل ما سواه عنده باطل هالك فعند ذلك تقر عين المحب بقرب المحبوب، ويدرك المأمول والمطلوب كما قال تعالى فيما ورد من الحديث القدسى (أعددت) أى هيات (لعبادى) أى العابدين لى بى لا بهم فى نظرى إليهم لا فى نظرهم إليهم، إذ هم يرون ما منهم لى منة عظيمة عليهم منى وأنا أرى ذلك الذى جعلته لهم عبادة منهم لى على حسب ما أردته منهم فلذلك سميتهم عبادى وهم عندى أحبابى لتركهم ما سواى حتى عبادتى فلم يشتغلوا عنى بشئ غيرى وأنا لم أتركهم من خلق طاعتى وعبادتى لهم حفظا عليهم من توجه غضبى على من عصانى (الصالحين) فى بواطنهم وظواهرهم للدخول إلى حضرتى والجلوس على سرائر مناجاتى ومنادمتى (ما لا عين رأت) من عيون الخلق مطلقاً لا أعينهم وذلك ظهورى فى أعينهم فإنى أريهم ذاتى على التنزيه المطلق فيرون مالا عين رأت (و) أسمعهم لذيذ خطابى فيسمعون (لا أذن سمعت) من آذان الخلق مطلقاً ولا آذانهم (ولا خطر) ذلك المرئى وذلك المسموع (على قلب بشر) فى الدنيا ولا فى الآخرة أبداً ولا على قلوبهم فضلا عن أن تكون عين رأت مثله أو أذن سمعت نظيره .

واعلم أن الحق تعالى إذا تجلى يوم القيامة لعبده الصالح تجليا خاصاً غير التجلى العام الذى لأهل هذا الوجود فى عالم الدنيا وكشف الحجاب عن عين البصر والبصيرة وأزال الوقر والصمم عن الأذن الجسمانية والروحانية رأى ذلك العبد ربه ﷻ وسمع خطابه فيعترف أنه رأى مالا عين رأت وسمع ما لا أذن سمعت ولا خطر ذلك على قلب بشر على كل حال .

وأما التجلى العام الذى لأهل هذا الوجود فى عالم الدنيا فقد كشف الله تعالى فيه الحجاب عن عبده الصالح فى حياته الدنيا فرأى أيضا مالا عين رأت من عيون أهل الغفلة والغرور وسمع أيضاً مالا أذن سمعت من آذانهم ولا خطر ذلك المرئى والمسموع على قلب بشر منهم أبداً ولكن ما فى الآخرة أعلا وأنزه مما فى الدنيا ولا تزال رؤية الله تعالى وسماع خطابه ينكشفان ويرتقى فيهما العبد من الدنيا إلى الآخرة وفى الآخرة يزداد ذلك بمراتب ومقامات لا نهاية لها أبد الآبدين ودهر الداهرين وكلما ترقى العبد فى ذلك مرتبة وجد ما قبلها حجاباً عليها ولا يستتر الكشاف أبداً ولا ينسدل حجاب مطلقاً وإنما الأخفى حجاب الأجلى . والأجلى استتار الأخفى .

وفى رواية أخرى للحديث القدسى المذكور (لما أرادونى) يعنى العباد الصالحين وتعلقت إرادتهم بى (لى) أى لأجلى لا لأجل نفوسهم وأنا أعلم منهم ذلك (أعطيتهم) فى مقابلة إرادتهم لى على الوجه المذكور (ما لا عين رأت) من ظهور جمالى وتجليات كمالى (ولا أذن سمعت) من لذة خطابى يوم سؤالى وجوابى .

ثم ذكر كيفية وصول العابد إلى مقام المحب فقال (إذ أفناك) يا أيها العابد أى محقك الحق تعالى (عن هواك) أى ميلك الصادر منك إلى أى شئ كان (بالحكمة) أى بمعرفة حقائق الأشياء على ما هى عليه بالنسبة إلى تجلى الحق تعالى كما سبق (و) أفنك أيضاً (عن أرادتك) لَه تعالى كما قال بعضهم إن من جملة القواطع عنه تعالى شهوة الوصول إليه (بالعلم) اللدنى الذى تجده فى قلبك من غير فكر ولا حفظ ويمكن أن يكون المعنى إذا أفناك عن هواك أى ميلك إلى المنهيات والمخالفات بالحكمة أى بمعرفة عواقب الأمور فإن عقبى ذلك الوبال والخيال والعذاب فى الآخرة وهو حكمة المنهيات والمخالفات وإذا أفناك عن أرادتك أى ميلك على المأمورات والموافقات بالعلم الذى يكشف لك عن جميع الأمور التى تصدر منك هو خالقها فيك على حسب ما قدرها عليك أردتها أم لم تردها (صرت) حينئذ (عبداً) لَه ﷻ لا لغيره من جميع ما تهوى وتريد (صرفاً) أى خالصا فى ظاهرك وباطنك على كل حال (لا هوى لك) فى شئ من الأشياء مطلقاً غير ربك المتجلى عليك بكل شئ . (ولا إرادة) لك فى غيره أبداً وإنما هواك لَه وأرادتك لَه فى عين هواك لكل شئ وإرادتك كل شئ لأن الأشياء كلها هالكة الا وجهه فوجهه هو المهوى والمراد عندك .

(فحينئذ) أى حين إذ صرت عبداً لَه صرفا (يكشف) الله ﷻ (لك عن نفسك) التى كانت مستترة عنك بهواك وأرادتك لغيره تعالى فيزول هذا الستر عنك وتصير نفسك مستترة عنك بهواك وإرادتك لَه تعالى ثم يزول هذا الستر الثانى عنك أيضاً (فتضمحل) أى تنمحق وتفنى بالكلية (العبودية) التى فيك لله تعالى (فى) ضمن صفة (الوحدانية) التى لله تعالى (فيفنى العبد) كما هو فان فى حقيقة الأمر على معنى أنه يزول التباسه بالموجود عن بصيرته التى هى البصر الإلهى بالنسبة إلى بعض ما هو عليه متعلق به من الكائنات . قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾(آل عمران: ١٥) أى هو بصير لهم بهم وفى حديث المتقوب بالنوافل وكنت بصره الذى يبصر به (ويبقى الرب) سبحانه (تعالى) على ما هو عليه باقياً أزلا وأبداً . وهذا معنى قول المحققين حتى يفنى ما لم يكن ويبقى ما لم يزل . وما أحسن قول الشيخ عفيف الدين التلمسانى قدس الله سره فى هذا المشرب العذب:

أرى رسمها عندى يعوض عن رسمى فما بالهم فى الحى يدعوننى باسمى
وهل بعد ضوء الشمس يبدو لك الدجا وهل عندها يبقى على الأفق من نجم
اذا ما دعى الداعى بعلوة فاستجب ولكن اذا أفنتك عنك على علم
ولم تبق إن أبقتك إلا بها لها فأنت إذا حققت من عالم الوهم
فمل طربا واشرب وطب ثم غب فما نعيمك إلا سكرة من هوى نعم
ومهما بقى للصحو فيك بقية يجد نحوك اللاحى سبيلا إلى الظلم

(الشريعة) وقد تقدم بيانها (كلها قبض) لأنها حكم الله ﷻ على نفوس المكلفين والنفس متى دخلت تحت حكم غيرها انقبضت (والعلم) بالشريعة على ما هى عليه المسمى بالعلم اللدنى وهو الذى يجده المقبل على ربه ﷻ بطريق الفيض الإلهامى فى معانى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ (كله بسط) لأنه لا يبقى للنفس وجود حتى يتوجه عليها ما يقبضها من حكم غيرها إذ تتحقق منه النفس بعدمها الأصلى فيصير الخطاب الإلهى عليها باعتبار المعية الأزلية فالحق ﷻ هو الحاكم من حيث هو فى حضرة الربوبية والمحكوم عليه من حيث العبودية فى حضرة القيومية (والمعرفة) بالله تعالى التى ينتجها العلم اللدنى الواصل إلى العبد من الله تعالى بلا واسطة كعلم الخضر عليه السلام الذى قال تعالى فيه ﴿ عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾ (الكهف: ٦٥) . فان المسألة من الله تعالى وشرحها منه تعالى أيضاً (كلها ادلال) من العارف بربه ﷻ على ربه ﷻ حيث أنخرق الحجاب بينه وبين ربه فيصدر منه مع ربه ما لم يصدر من عبد مع مولاه ويحتمل منه ربه ما لم يحتمله من غيره .

قال حجة الإسلام الغزالى رضي الله عنه لا تستبعد رضاء الله تعالى عن العبد مما يغضب به على غيره ألا ترى إلى قول موسى عليه السلام ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون ﴾ (الشعراء: ١٤) . وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الأدب لكن من أقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل ولم يحتمل من يونس عليه السلام ما دون ذلك لكونه أقيم مقام القبض والهيبة فعوقب بما عوقب به وذلك الاختلاف إما لاختلاف المقامات أو لما سبق فى الأزل من التفاضل وانظر كيف احتمل لاخوة يوسف عليهم السلام ما فعلوه بيوسف عليه السلام ولم يحتمل العزيز كلمة واحدة سأل عنها فى القدر وقال الحسن احترقت أخصاص بالبصرة إلا خصاً بوسطها فقيل لصاحبها ما

لخصك لم يحترق قال أقسمت على ربى أن لا يحرقها ورأى أبو حفص رجلا مدهوشاً فقال مالك قال ضل حمارى ولا أملك غيره فوقف أبو حفص وقال لا أخطوا خطوة ما لم ترد حماره فورا فظهر حماره فوراً .

قال الغزالى ﷺ وهذا يجرى لذوى الأنس وليس لغيرهم التشبه بهم .

وقال الجنيد ﷺ أهل الأنس يقولون فى خلوتهم أشياء هى كفر عند العامة . أنتهى .

فمعنى قولَه هى كفر عند العامة أنهم لا يعرفون معناها الذى يقصده أهل الأنس فى خطاب الله تعالى وهم فى مقام الإدلال والأنس كما لا يعرف الأكمه ما يقصده البصير باللون الأبيض والأحمر ونحوه .

(طريقتنا) معشر أهل الحقيقة واليقين الموحدين لله تعالى توحيداً ذوقياً شهودياً والمراد بالطريقة السيرة والحالة التى هم فيها فى الباطن والظاهر (كلها محبة) لله تعالى فقط وهى ميل القلب إلى شهود الرب يعنى إننا دائمون مائلون إلى الله عن كل شئ راغبون فى شهوده عن شهود كل شئ مشتغلون فى معرفته عن معرفة كل شئ متلذذون بمشاهدته فى كل شئ عن مشاهدة كل شئ لا نعرف دينا ولا اعتقاداً ولا شيئا من أنواع العبادات غير المحبة لله تعالى .

وأما ما ظهر علينا مما يسميه غيرنا دينا واعتقاداً وصلاة وصوما وزكاة وحجاً ونحو ذلك من أنواع العبادات فهو عندنا منن ونعم من الله تعالى علينا لا حول لنا فى ذلك ولا قوة إلا به فنحن موصوفون به وهو الفاعل لَه وحده فينا كما قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (الحجر:٩٩) . يعنى إذا جاءك اليقين فلست بعابد حينئذ لأن العابد يحتاج إلى نفس يعبد ربه بها فإذا انطمست النفس بأنوار اليقين بقى العبد ساكنا تحت أمواج القدرة تحركه كيف شاءت فإذا عبد فليس بعابد بل هو موصوف بالعبادة فى نظر غيره من أرباب النفوس وليس موصوفا بها فى نظره هو كنظر أرباب القلوب فقد انقلبت عينه فى عينه وهو على ما هو عليه من قبل فهذه طريقة الجماعة من أهل الله تعالى (لا عمل) أى ليست طريقتنا عملا لأن العمل لَه عامل ومعمول لَه وهى ثلاثة : (عمل وعامل ومعمول لَه) فقد فات التوحيد مع التثليث بل حقيقة ذلك أن الله تعالى كما خلق العبد بأعضائه وقواه الظاهرة والباطنة خلق لَه جميع ما يصدر منه من أعماله الظاهرة والباطنة .

قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الصافات:٩٦) . فهى أعماله إن نظر إلى نفسه ولا عمل لَه بل هو وعمله عمل ربه إن لم ينظر إلى نفسه وأقبل على ربه وأهل المحبة دائماً

مقبلون على ربهم ولا نفوس لهم لينظروا إليها فلا يتصور لهم عمل أبداً دائماً على كل حال فليس العمل فى طريقتهم بل هو فى طريقة الغافلين المحجوبين عن الله تعالى (و) طريقتنا أيضا (فناء) بالكلية عن كل شئ فى شهود الله تعالى (لا بقاء) مع شئ من الأشياء مطلقاً لا نفساً ولا غيرها .

ثم بين الأول بقوله (إذا دخلت) أيها العامل (فى العمل) الخالص لله تعالى (كنت) ساعياً (لك) أى لنفسك بحصول نجاة من الله أو فوز لديه فأنت حينئذ مشغول بحظوظ نفسك لا بربك (وإذا دخلت فى المحبة) الصادقة لله تعالى (كنت) ساعياً (له) ﷻ لا لنفسك فتعبده محبة فيه لتظهر ربوبيته بعبوديتك لا لتنجو منه أو تفوز لديه (العابد) لله تعالى دائماً (راء لعبادته) أى ناظر إليها قاصد له مشغول بها منهمك فيها ويلزمه من ذلك أن لا يكون ناظراً إلى ربه ولا قاصداً لها ولا مشغولا به ولا منهمكا فيه وذلك نقص ظاهر حيث أعرض عن المحبوب وأقبل على العبادة فهو واقف عند كثرتها وقتها ينتظر الجزاء عليها (والمحب) لله تعالى (راء لمحبته) أى ناظر إليها معتبر لها مشتغل بها ويلزم من ذلك أن يكون ناظراً إلى ربه مشتغلا به معرضا عن كل ما سواه لأن المحبة ليست كالعبادة يلزم من الاشتغال بها الإعراض عن المعبود وذلك بسبب أن المحبة هى محبة واحدة من الرب إلى العبد ثم تنقلب عند وجود القلب من العبد إلى الرب كما قال تعالى ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (المائدة: ٥٤) . فإذا كانت فى الرب للعبد لا تقتضى إعراضاً عن العبد بل إقبالا عليه وإذا كانت فى العبد للرب لا توجب أيضا إعراضا عن الرب بل إقبالا عليه بخلاف العبادة فإنها ليست من أوصاف الرب بل هى من أوصاف العبد خاصة وهى ما يتميز بها العبد من الرب نظير الربوبية فى الرب خاصة يتميز بها الرب من العبد ومن لازم ما يميز أن يوجب إعراض المتميز عن غيره .

فإن قلت ورد أن مجنون ليلى لما جاءته وقالت له أنا ليلى قال لها عنى إليك فإن حبك شغلنى عنك فقد تصور أن المحبة اشغلت المحب عن المحبوب فأوجبت الإعراض عنه قلت لم تكن ليلى حين جاءته هى محبوبته لانتقال محبته عنها من حيث هى ليلى إلى محبته لها من حيث التجلى الإلهى الذى أنتجها فى هذا الوجود فقد رجعت محبته إلى أصلها كما كان يحب ليلى ويرغب فى لقائها وهو غافل عن حقيقة ما وقعت عليه المحبة فلما انكشف عن بصيرته غبار الأغيار لمعت له الأنوار من خلف هاتيك الأستار فأعرض عن الدار وأقبل على الديار لأن السر فى السكان لا فى الديار وكلامنا هذا يقتضى أن لمجنون ليلى قدما فى التحقيق على طبق ما ذهب الشيخ الأكبر إليه ﷺ والله ولى التوفيق .

(إذا عرفته) يا أيها العبد إذا عرفت الله تعالى بأن عرفت نفسك وغيرك من حيث تجليه تعالى بنفسك وبغيرك فى حضرة علمه القديم وأنكرت نفسك وغيرك من حيث وجود آخر غير وجوده تعالى المتجلى به فلا وجود إلا الله تعالى وحده وأنت وغيرك موجودون بوجود لا بوجود آخر غير وجوده من غير حلول ولا اتحاد (كانت) حينئذ (أنفاسك) أى كلماتك التى تتنفس بها عما يجده قبلك من المعانى التوحيدية والمعارف الإلهية والحقائق الربانية (به) أى بحوله وقوته لا بحولك وقوتك وهو قوله ﷺ فى حديث المتقرب بالنوافل كنت سمعه وبصره ولسانه ثم قال فبى ينطق يعنى لا بنفسه إذ لا نفس له لزوالها بمعرفتها (وحركاتك) الظاهرة والباطنة الاختيارية والاضطرارية فى الخير والشر منسوبة كلها (له) ﷻ عندك حيث هى صادرة منه تعالى وهو المتجلى بك فى صورتك وأنت فى علمه عدم محض لا وجدت ولا توجدت ولا أنت موجود مطلقاً وكذلك جميع ما هو حادث مثلك .

(وإذا جهلته) ﷻ بأن ظننت أن نفسك وغيرك موجودان بوجود مستقل غير وجود الله تعالى ولم تعلم التجليات الإلهية فى الحوادث الكونية (كانت) له حينئذ (حركاتك) كلها التى تتحرك بها فى الباطن والظاهر أختياراً واضطرارا فى الخير والشر ولم يذكر الأنفاس لأن الجاهل بالله تعالى لا أنفاس له يتنفس بها عما يجده فى صدره من العلوم إذ لا علم له وإنما موضع أنفاسه حركات فى قلبه ولسانه (لك) أى منسوبة عندك لنفسك لاستقلال نفسك وغيرك فى زعمك بوجود آخر غير وجود الله تعالى لأنك جاهل به تعالى والجهل به يوجب الانقطاع عنه .

(العابد) لله تعالى وهو الذى يذل نفسه امتثالا لأمر ربه واجتناباً لنهيه ظاهراً وباطناً سرا وجهرا (ماله سكون) أى إمساك عن الحركة النفسانية فى عبادة ربه لأنه متى سكنت حركة نفسه عن العبادة خرج عن كونه عابدا فهو متحرك النفس دائما فى طاعة مولاه قائم فيها بنفسه لربه لا بربه لربه (والزاهد) أى المعرض بنفسه عما سوى الله تعالى من الدنيا والآخرة وأعمالهما فوق مرتبة العابد (ماله رغبة) أى ميل ومحبة لشىء سوى ربه تعالى فهو معرض بنفسه دائماً عن الأغيار راغب بنفسه فى شهود الملك القهار فلم يبرح عن الشرك الخفى فى ليله والنهار إذ هو مع نفسه وهو يظن أنه مع ربه وما زهد فيه عين ما زهد عنه لو كان من أولى الأبصار قال القائل حيث يقول:

أأزهد فى سواك وليس شئ أراه سواك يا سر الوجود

(والصديق) بالتشديد للدال المهملة مكسورة وهو الكثير الصدق فى أقواله وأفعاله

وأعتقاداته أو الكثير التصديق بما يجب التصديق به من الغيب وغيب الغيب والصديقية مقام من مقامات القرب وهى استواء السريرة والعلانية فى العبد فوق مقام الزاهد والعابد (ماله ارتكان) أى اعتماد واتكال بظاهره وباطنه فى جميع الأمور على غير صدق فى عبادته وزهد فيما سواه سبحانه قولا وفعلا واعتقاداً ومتى أعتمد على سواه تعالى فقد خرج عن مقام الصديقية فليس لَه اعتماد على شئ ولا على نفسه فهو القائم بالله لله (والعارف) بالله تعالى المتحقق فى معرفة العبد والرب والقائم بنفسه فى غير قيامه بربه (ماله) بنفسه فى غير تجلى ربه (حول) أى تحول وانتقال من مكان إلى مكان أو حال إلى حال أو مقام إلى مقام بل انتقاله فى جميع ذلك بنفسه القائمة فى حضرة تجلى ربه بربه فهو بنفسه بربه لا بنفسه فقط ولا بربه فقط فإن الذى بنفسه دون ربه صاحب شرك خفى والذى بربه دون نفسه صاحب سكر واستغراق ليس بعارف بنفسه ولا بربه والعارف عارف بهما قائم بهما ليس عنده غلا واحد ولكن لَه حضرتان فهو يعطى كل حضرة حقها ويقيم الميزان ذا الكفتين واللسان (ولا لَه قوة) على شئ مطلقاً إلا بنفسه المعدومة فى حضرة ربه الموجود (ولا اختيار) لَه فى أمر من الأمور على كل حال إلا بنفسه التى هى عنده تجلى ربه العالم به عليه (ولا إرادة) لَه أيضا أى ميل إلى شئ من الأشياء إلا بنفسه الظاهرة لَه من ربه فى تجلى ربه ﷻ (ولا حركة) لَه أيضاً (ولا سكون) فى باطنه وظاهره إلا بنفسه التى هى عين تجلى ربه عليه وهو فى علم ربه تعالى فهو من حيث المتجلى ربه ومن حيث الصورة المتجلى بها نفسه وأعلم أن تجلى الحق تعالى أى ظهوره فى الصور غير ممتنع شرعا ولا عقلا أما شرعا فقد ورد فى صحيح مسلم أن الحق تعالى يتحول يوم القيامة لأهل المحشر فى غير صور اعتقاداتهم ويقول أنا ربكم فيتعوذون منه ثم يتحول لهم فى صور اعتقاداتهم فيقولون أنت ربنا فيتبعونه والحديث طويل فقد صح ظهوره تعالى فى الصور وظهوره تعالى لموسى عليه السلام فى صورة الشجرة ذات النار والنور وهى شجرة الزيتون فى طور سيناء حق بلا شبهة ثم لما جاءها نودى يا موسى إنى أنا ربك على حسب ما ورد فى القرآن العظيم .

وأما عقلا فإن الملائكة والجن قادرون على الظهور فى أى صورة شاؤا من غير أن تتغير صورهم الأصلية مما هى عليه وهم حادثون فكيف الله تعالى القديم لا يقدر على ذلك وهو على ما هو عليه فإن قلت إنما قدرة الجن والملائكة لأنهم حادثون وأما القديم فلو تصور فى صورة لكان متغيراً حادثاً .

قلت : لو تصور فى صورة وتغير فى ذاته باعتبار ذلك التصور يلزم أن يكون حادثا كما

يفهم من لا علم لَه بكيفية تصور الملائكة والجن فى الصور المختلفة من غير أن تتغير صورهم الأصلية وأما إذا كان معنى التصور فى الصور المختلفة من قبيل استحضار العالم بالشىء منا حين يستحضر صورة الشىء فى نفسه من غير أن تتغير نفسه ولا يتغير هو عما كان عليه من قبل فلا مانع فى العقل ولا فى الشرع من تصور الحق تعالى لخلقه فى صور مختلفة لاسيما وقد أطبق العقل والنقل على وصف الله تعالى بالعلم بكل شئ قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٨٢) . والعالم إذا أظهر معلومه فقد تصور فى صورة معلومه لمن أطلع على معلومه من غير أن يتغير هو فى نفسه وهذه المسألة لا ينكرها إلا جاهل بالحقائق أو متعصب على أرباب الطريق .

ثم لما فرغ من ذكر العارف الذى هو مقام الصفات شرع فى ذكر المستغرق الذى هو فى مقام الذات ولم يذكر حرفاً عاطفاً لعدم مناسبته مع ما قبله كأنه عالم آخر على حدة فقال **(الموجود)** بنفسه فى حضرة تجلى وجود الحق تعالى حيث هو فى مقام العارف بعد فقد نفسه فى نفس المتجلى الحق ﷺ حيث هو فى مقام الصديق كما سبقت الإشارة إليه (ماله) فى نفسه **(وجود)** ولا فى حضرة التجلى عنده غير وجود المتجلى من غير تجل لخروجه عن الحضرات الإلهية واندراجه فى غيب الهوية فمقامه جحود مقام العارف قلت كما فى هذا الوقت من النظم:

وجود ثم فقد للوجود	**ويرجع بعد ذلك للشهود**
وينفيه ويثبته التجلى	**بإكرام لَه منه وجود**
فمن عين إلى غين تراه	**ومن غين إلى عين الوجود**
مقام محمد خير البرايا	**تجلى وأستار فى القيود**

(إذا استأنست) أيها السالك فى طريق الله تعالى (به) أى بالحق تعالى بأن وجدت الأنس عندك بشهود نفسك عاملة أحسن العمل فى حضرة تجلى ربك لا به تعالى من حيث هو فإنه لا أنس من هذا الوجه للحق تعالى أبداً ولا يمكن ذلك لأن المناسبة مرتفعة من الطرفين كما قال الشيخ الأكبر ﷺ من أبيات لَه فى ترجمان الأشواق:

وحشية ما بها أنس قد اتخذت	**فى بيت خلوتها للذكر ناووسا**

ثم قال ﷺ فى شرح هذا البيت أن هذه الحكمة العيسوية لا يقع بها أنس فإن مشاهدة الذات فناء ليس فيها لذة كما قال السيارى: ما التلذ عاقل بمشاهدة قط لأن مشاهدة الحق سبحانه فناء ليس فيها لذة لعدم المناسبة فلهذا جعلها وحشية أى أنها تشره إلى

إمساكها النفوس الشريفة وهي لا تألف إليها لعدم المناسبة بين العبد وبين الرب أنتهى، وقول الماتن محمول على استئناس العبد بنفسه الصالحة التى تجلى عليه بها ربه لا بربه كما ذكرنا ومتى أستأنس بنفسه كان استئناسه بها من حيث أنها ظهور ربه عنده لا من حيث أنها نفسه فيقال أستأنس بربه لأن نفسه فى علم ربه هى التى يمده ربه منها فيتجلى عليه بها فلولا أن فيها سعادة ما أسعده ربه أو شقاوة كذلك ما أشقاه ربه قال تعالى ﴿ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (طه: ٥٠) . وقال تعالى ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (النحل: ١١٨) . ولولا أن أنفسهم لها أنفس مثلها فى حضرة علم الرب تعالى ما كانوا أنفسهم يظلمون فيتجلى الحق تعالى بأنفسهم التى فى حضرة علمه سبحانه على أنفسهم التى فى ظاهر الكون ويظهر ما علم منها من خير أو شر والخير فضل منه والشر عدل منه فأنفسهم فى علمه هي ربهم إذا عرفوها ربهم وإن جهلوها جهلوا ربهم . قال تعالى ﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ (الإسراء: ١٥) .

وفى الأثر من عرف نفسه فقد عرف ربه . فالاستئناس بالرب هو الاستئناس بالنفس لكن فى عالم التجلى لا فى عالم الغفلة . وأما الاستئناس بالحق تعالى من حيث هو لا من حيث تجليه فى صورة النفس فلا يمكن الاستئناس به مطلقا (استوحشت منك) أى من نفسك من حيث هى نفسك ونفرت منها لما ترى فيها من الوحشة والظلمة التى لا يزيلها عنها غير ظهوره تعالى بها .

ثم تكلم الشيخ ﷺ فى المقام الأنفس عن الجناب الأقدس فقال (من أشتغل) فى ظاهره وباطنه (بنا) أى من أعرض عن جميع الأغيار وتعلق بجنابها (له) لأجل نفع نفسه الدنيوى أو الأخروى بأن يكون مراده القرب إلى الله تعالى والحصول إلى الدرجات العلى والسلامة من الشرك الخفى وإنقاذ نفسه من المهالك فى الدنيا والآخرة فقد (أعميناه) عن رؤيتنا وشهودنا فى كل شئ بسبب ذلك الغرض الحقير عندنا بالنسبة إلينا الذى قصده فى اشتغاله بنا وانهماكه بمعرفتنا وإذا عمى فى الدنيا ففى الآخرة كذلك قال تعالى ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ ﴾ (الإسراء: ٧٢) . لأن المرء يبعث على ما مات عليه كما ورد فى الحديث . وقد مات على الغفلة فيبعث عليها مع أنه صرف عمره فى الطاعة والعبادة والمجاهدة فى الله تعالى فما بالك بمن صرف عمره فى المعصية والإعراض عنه تعالى فهو الأضل سبيلا والأول هو الأعمى فقط (ومن أشتغل) كذلك (بنا) وأعرض عن كل ما سوانا (لنا) أى لأجلنا لا لأجل نفسه بأن لم يقصد شيئاً فى اشتغاله بنا غير ما أردناه نحن من

خلق اشتغاله بنا له كما ورد فى الخبر . يا ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك وخلقتك من أجلى فلا تشتغل بما خلق لأجلك عما خلقت لأجله (بصرناه) بتشديد الصاد المهملة على طريق المبالغة . أى جعلنا بصره وبصيرته غير محجوبين عنا فى مشاهدة كل محسوس ومعقول فلا يحس بشىء ولا يعقل شيئاً إلا ويشهدنا فى ذلك الشىء من غير حلول فيه ولا اتحاد به ولنا من النظم فى هذا المعنى:

تــرك المــراد لَــه فكــان مــرادا ... وجــرى بمــيدان الفــناء جــوادا
طلــب الحبيــب لأجلــه مــنه ولم ... يطلــب لَــه مــن نفســه ليــنادا
فهــو الــذى شــرب الحقــيقة صــرفة ... فاخـــتال اطلاقـــا وفـــك قـــيادا
وبــدا بــأفلاك الوجــود عــلى الــورى ... شمســاً تـــنير خلائقـــاً وبـــلادا

ولنا من النظم أيضاً فى هذا المعنى

عـــرف المحـــبوب فابـــتهجا ... وعـــن الاكـــوان قـــد خـــرجا
مســـتهام لـــيس يقـــنعه ... غـــير لحـــظ العـــين وهـــب رجـــا
ضـــاق حـــتى لـــو تكـــون لَـــه ... وســـعة الداريـــن مـــا انفـــرجا
والـــنوى والشـــوق أتلفـــه ... لم يـــزل فـــى الحـــب مـــنزعجا
لـــو لمـــن يهـــواه كـــان درى ... مـــنزلا مـــن شـــوقه عـــرجا
آه مـــن لى لم أجـــد أحـــداً ... عـــنه بـــالإدراك لى لهجـــا
ليـــت لـــو ألقـــى لَـــه ســـببا ... أو أرى لى نحـــوه درجـــا
ذاب صـــبرى وانقضـــى جلـــدى ... والـــتوانى أحـــرق المهجـــا
رام بـــالاكوان يشـــغلنى ... عـــنه كـــى أســـلو فشـــوقى جـــا
بـــى علـــيم غـــير أن لَـــه ... حكمـــة تهـــزا بكـــل حجـــا

ثـم بين ما ذكر فقال(إذا زال) أى فنى وأضمحل عنك بالكلية (هواك) أى ميلك إليه لغرض من أغراض نفسك كما سبق لا لأجله هو أو أعم من ذلك (يكشف) الله تعالى (لك عن

بـاب **الحقيقة)** التى عليها أمرك وأمر كل شئ بأن يكون تعالى بصرك الذى تبصر به كما ورد فى حديث التقرب بالنوافل .

فـإذا كان الحق تعالى بصرك الذى تبصر به انكشف لك حقائق الموجودات على ما هى علـيه فـى بصـر الحـق تعـالى الذى هو بصرك الذى تبصر به على التنزيه المطلق فى بصيرتك وقـال عـن بـاب الحقـيقة ولم يقل عن الحقيقة لأنها واحدة وكل شئ بابها . فإذا كشف لك عـن كـل شـئ الـذى هـو بابهـا عرفت الكثرة فى الوحدة فيبقى عليك أن تعرف الوحدة فى الكـثرة **(فتفـنى)** أى تضـمحل عـنك بالكلـية **(إرادتك)** لله تعالى ولغيره فتبقى بلا إرادة لشئ مطلقـاً لا تـريد الله تعـالى ولا تـريد غيره ولا تريد خيراً ولا شراً ولا تريد إرادة ولا ترك إرادة **(فيكشـف)** الله تعـالى **(لك عن)** حينئذ عن صفة **(الوحدانية)** التى هو موصوف بها على حد مـا هـو موصـوف بها فى حقيقة الأمر لا على حسب ما كنت تعلمه أنت من معنى الوحدانية فـى حقـه تعالى من قبل **(فتحققت به)** تعالى لا بنفسك إذ لا نفس لك حينئذ . وما كان بالله تعـالى كان يقيناً وما كان بنفسك كان ظنا لا يقينا لجميع ما تعلمه من قبل ظن واليقين هو ما تعـلمه الآن بـالله تعـالى فلهذا كان تحققاً **(أنه)** أى الله تعالى **(هو)** الموجود وحده **(بلا أنت)** أى أنت معدوم لا وجود لك **(معه)** ﷻ الآن ولا وجدت معه من قبل ولا توجد معه من بعد.

وكذلـك مـا هـو سواه ﷻ من جميع الأغيار لا وجد ولا يوجد ولا هو موجود معه تعالى أبـداً وإنمـا هـو تعـالى موجـود وحـده مع كل شئ ولولا معيته لكل شئ ما كان فى عالمه شئ مطلقـاً فالأشـياء موجـودة فـى عالمهـا بالنسـبة إليها فى نفسها ولا وجود لها بالنسبة إلى الله تعالى البـتة كمـا أن الله تعـالى موجـود فـى أزلَه على ما هو عليه فى عالم الأشياء فمن أراده تعالى خرج عن عالم الأشياء إليه تعالى فكان هو تعالى موجوداً لا غيره معه فى أزله مطلقاً .

(إن سـلمت) أيهـا المـريد أمرك فى الباطن والظاهر **(إليه)** ﷻ فلم تطلبه تعالى منه ولا مـن غـيره ولا تركـت طلـبه أيضـا مـنه ولا من غيره بل كنت مع ما يخلق فيك منه تعالى من طلـب أو تـرك طلـب مستسـلما إلـيه على كل حال **(قربك)** إليه حينئذ وأدناك منه وأجلسك على بساط الانبساط معه لأنك سلمت إليه نفسك فسلم إليك نفسه .

(وإن نازعـته) أمـرا مطلقـاً فـى الـباطن أوفـى الظاهر وطلبته منه تعالى أو من غيره أو تركـت طلـبه مـنه تعـالى أو مـن غـيره ولم تكن معه على حسب ما وضعه فيك من الطلب أو الـترك **(أبعدك)** عنه تعالى وطردك عن جنابه العظيم بما وضعه فيك من منازعة نفسك لَه ﷻ كمـا طـرد قـبلك إبلـيس اللعـين بسـبب منازعته لله تعالى فى تفضيل آدم عليه السلام وذلك لأنك لم

تسلم إليه فلم يسلم إليك فنازعته فنازعك والجروح قصاص .

(إن تقربت إليه) أى طلبت القرب إليه تعالى (به) أى بقدرته المتوجهة على إيجاد طلبك له تعالى فيك من غير واسطة إرادة نفسك لذلك (قربك) حينئذ ﷻ لأنك لم تطلبه بغيره تعالى فلم يوجد فيك ما يقتضى بعدك عنه وهو إرادة نفسك (وإن تقربت إليه) ﷻ (بك) أى بسبب إرادة نفسك لذلك القرب وحسنه عندك وكماله فى نظرك (أبعدك) ﷻ حينئذ عن جنابه العظيم وطردك عن شهود وجهه الكريم لأنك طلبته بغيره فحجبك عنه بعين ما طلبته به . وهو الغير فى زعمك ولا غير فى الحقيقة فزعمك حجابك (إن طلبته) ﷻ (لك) أى لأجل نفسك بأن قصدت فى طلبك لَه حصول شئ من الحظوظ الدنيوية أو الأخروية (كلفك) أى أوقعك فى الكلفة وهى المشقة والتعب بأن أقامك فى تكاليف الشريعة أمراً ونهياً وذلك لأنك موجود عند نفسك تطلب لها ما يتم به غرضها من الراحات فيلزمك أن تقتحم بها حومة ما كلفت به مما لا يلائم غرضها من المتاعب ليقوم بعدله الميزان وتتساوى منه الكفتان . وكما تدين تدان . فحيث ما طلبت منه طلب هو أيضاً عنك لَه (وإن طلبته) ﷻ (لَه) أى لأجله لا لأجل نفسك بأن قصدت فى طلبك لَه ظهور ما خلقه فيك من طلبك لَه على حسب مراده بذلك من اظهار عبوديتك . والكشف عن ربوبيته لك بذلك الإظهار وغيره من الأسرار . (دلك) أى جعلك فى مقام الإدلال عليه بسبب رفع الحجاب بينك وبينه وهو نفسك . فلما زالت نفسك زال عنك كل ما كنت تتوهم أنه غير فصرت تتدلل به عليه بعد ما كنت تتذلل بنفسك بين يديه ويزال عنك تعب التكاليف براحة الدلال وتخلصت من مرارة الهجر والجفاء بحلاوة الوصال (قربك) إليه تعالى كما قال تعالى ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (ق:١٦) . إنما هو (خروجك) أى اضمحلالك وزوالك بالكلية (عنك) أى عن نفسك بحيث يخلق الله تعالى فيك رؤية أنك قائم به تعالى إيجاداً وإمداداً وعملا واعتقاداً (وبعدك) عنه ﷻ كما قال تعالى ﴿ أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٤) . إنما هو (وقوفك) أيها العبد السائر فى مسافات الأطوار على نجائب الإرادة الإلهية والاقتدار من غير شعور منك بهذا السير لأنك واقف مع الغير ولا غير وإنما زعمك أوقعك فى هذا الضير (معك) أى مع نفسك متحققاً بوجودها مع وجود معبودها ومشتغلا بأحوالها عن أفعال الله تعالى المنسوبة .

واعلم أن الحركة الواحدة للشيء المعدوم إذا ورد عليه أمر الله تعالى بالوجود على وجه لا يعلمه إلا الله تعالى لابد أن تقتضى صورة خلقية تسمى شيئاً . فاذا وردت تلك

الحركة الواحدة على قلب العبد الغافل واقتضت فعل شئ أو تركه اقتضت صورة خلقية اشتغلت بها تلك الحركة الواحدة عن نفسها فإذا أعرضت عما اقتضته والتفتت إلى نفسها لتعلم ما هى فى نفسها اقتضت صورة أخرى غير الأولى هى تصوير نفسها وهكذا لا تزال كلما أعرضت عن صورة اقتضت صورة أخرى غير الأولى فهى مشتغلة بما تقضيه من الصور فلا يمكنها أن تعرف نفسها ما هى من حيث هى حركة واحدة عن أمر الله تعالى أبداً . بل كل صورة اقتضتها هى صورتها فى طور من أطوارها وشأن من شؤونها وهى لا تعرف ذلك وتعتقد تلك الصورة كلها المغايرة لها ولا مغايرة . بل عين تلك الحركة الواحدة عين تلك الصورة. فإذا عرفت ما اقتضته من الصورة حقيقة المعرفة عرفت نفسها وإذا عرفت نفسها عرفت ربها فهى محجوبة عن معرفة نفسها بصورها التى تتصور لنفسها بها كما أحتجب الرب بالصور التى يصورها لنفسه وتلك الحركة المذكورة هى حقيقة الانسان الذى هو آدم عليه السلام وما زاد عليها فى الإنسان من الجمادية والنباتية والحيوانية صور لها تحجبها عنها وهذا معنى قوله ﷺ (أن الله خلق آدم على صورته) وفى رواية (على صورة الرحمن) . وخص آدم عليه السلام لوجود الحقيقة الإنسانية فيه دون غيره من جميع العالم . وقد عرفناك طريق الله تعالى . فاعرج على هذا المعراج وأحذر من الاعوجاج

(إن جئت) أيها المريد إلى حضرة الله تعالى بأن أقبلت على الاشتغال به تعالى فى عين اشتغالك بكل شئ وأعرضت عن كل شئ (بلا أنت) أى بدون نفسك وهى الحركة الواحدة الصادرة عن أمر الله تعالى كما ذكرنا قال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ (القمر: ٥٠) . أى حركة واحدة . ثم قال تعالى كلمح بالبصر فشبهها بما تصورت به من لمح البصر الذى هو صورتها فى الحس . وقال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ (الإسراء: ٨٥) فالروح واحدة والنفوس كثيرة . والنفوس الكثيرة هى تلك الروح الواحدة ولا يصدر عن الواحد إلا واحد فالأمر واحد والروح واحدة ووجوه الروح كثيرة وهى النفوس الكثيرة وهذا طريق آخر قد عرفناك به إن كنت من أهله والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم (قبلك) فاقبل عليك حيث أقبلت عليه وتركت نفسك .

(وان جئت) إلى حضرته تعالى (بك) أى بنفسك واقتضت تلك الحركة الواحدة منك صورة توجهك إليه واشتغلت بتلك الصورة الواحدة وغفلت عن معرفة نفسك (حجبك) عنه تعالى وعن شهوده فى كل شئ بعين ما اشتغلت به من صورة توجهك إليه فلم يقبل عليك لأنك ما تركت نفسك وأقبلت عليه فنفسك هى عين حجابك الذى حجبك به عنه .

(العـامل) لله تعـالى عـلى مقتضـى أمره ونهيه مع الإخلاص والخشوع . ويلزم من العالم أن يكـون عالمـاً بما يعمل به من الشرائع والأحكام وإلا فليس بعامل لأن عمله باطل بلا علم كما تقـدم أن العـلم طـريق العمـل (لا يكـاد يخلـص) أى يسـلم (مـن رؤيـة) أى ملاحظـة (عمله) واعتـباره فـى نظـره وإن أجهـد نفسـه فـى عـدم ذلـك لأن مـن ضرورة العامل أن يشتغل بعمله ليكشـف عـنه بعـلمه ويطلـع على صحيحه وفاسده للخروج من عهدة تكليفه به فلا يكاد يسلم مـن رؤيته والالتفات إليه على كل حال . وإذا كان الأمر كذلك (فكن) يا أيها المريد للوصول إلى أوج المحصـول فـى عملـك الذى كلفت به فعلاً وتركا وناظرا ذلك فيك (من قبيل المنة) من الله تعـالى علـيك يخلـق ذلـك لـك مـن غير استحقاق فيك له . بل محض فضل وإحسان من الحق تعالى عليك ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (الجمعة: ٤) . (ولا تكن) ناظـراً ذلـك فـيك (من قبيل العمل) الصادر منك لله تعالى تسلم حينئذ وتتخلص من رؤية عملك فـإن أهـل الله تعـالى لا عمـل لهـم وإنمـا العمـل لله تعالى فيهم وهم أهل منة من الله تعالى حيث خلـق الأعمـال ونسـبها إلـيهم والعمـل فى طريق أهل الحجاب والغفلة لا فى طريقهم محبة فقط كما ذكـرناه فيما سبق . وأما قوله تعالى ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة: ١٠٥) . فهو خطاب لأهل الغفلـة والحجـاب عـلى حسـب مـا يعتقدونه من أن العمل منهم . وكذلك قوله تعالى ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَـيَرَى اللَّـهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ (التوبة: ١٠٥) وأما قوله تعالى ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّـكُورُ ﴾ (سـبأ: ١٣) . فهـو خطـاب لأهـل الخصوص بجميع ما خوطب به أهل العموم ثم صرف حالـة أهل العموم عن أهل الخصوص . ليتميزوا عنهم بعد أن شاركوهم وقد حصل التمييز بقوله شـكراً والشـكر رؤيـة المـنعم المنان فالعمل فى الصورة والنعمة والمنة فى الحقيقة والعامل مشرك شـركا خفياً عنه لرؤيته أنه عامل والعامل غير المعمول له وهما غير العمل فهى ثلاثة ولا توحيد مـع التثليـث كما سبق ذكره وقال تعالى ﴿ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴾ (المائدة: ٧٢) . وأطلق الشرك فشمل الخفى والجلى . وفى حديث (لن يدخل أحدكم الجنة بعمله) . أى بسـبب عمله الموجب للشرك الخفى قالوا ولا أنت يا رسول الله من قبيل قوله تعالى للنبى ﷺ ﴿ لَـئِنْ أَشْـرَكْتَ لَيَحْـبَطَنَّ عَمَلُـكَ ﴾ (الزمر: ٦٥) . فسماه عملا مشاكلة للمشركين فى أعمالهم لأن المـراد تعـريفهم بذلـك . قـال ولا أنـا إلا أن يتغمدنى الله برحمته . وتقدير الكلام فيصرف عنى رؤية العمل ويرينى منته على وكيف يوجد مع الشرك عمل والشرك محبط للعمل بنص الآية .

(إن عرفـته) أيهـا العـبد السـالك فـى طـريقه أى عرفـت الله تعالى بتعريفه إياك وتحققته بتحقـيقه (سـكنت) إلـيه تعـالى يعـنى اطمأنـت جوارحـك الباطـنة والظاهـرة وسلمت من التحرك والاضـطراب فـى أحوال الدنيا والآخرة . ولا يبقى لك حركة ولا سكون وترجع إلى عدمك الأصلى

فـي ظهـور وجـوده المصـون . فقولـه سـكنت أي زالـت حركتك الأمرية المتحرك بها كل متحرك وسـاكن فـي عـالم الخلـق وإذا زالـت حركـتك الأمرية رجعت إلى سكونك الأصلي فانعدمت (وإن جهلـتـه) أي الله ﷻ بأن لم يتعرف إليك فلم تعرفه (تحركت) إلى معرفته بنفسك فاحتجبت بها عـنه فوقعت في الزيغ والضلال واضطربت جوارحك بقضائه الأزلي ولم ترض بأحكام الأقدار ووقع قلبك في مهالك الأتعاب والأكدار .

ثـم أجمـل مـا فصـله مـن قبل بقوله (فالمراد) أي مراد الله تعالى منك (أن يكون) هو تعالى وحـده موجـوداً فـي عـلمك الحـادث كمـا هو موجود في علمه القديم (ولا تكون) أنت ولا غيرك أيضـاً موجوداً معه ﷻ في الوجود قال تعالى ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ (محمد: ١٩) . فـلا إلـه إلا الله لا موجـود إلا الله ولكـن يحـتاج هذا المعنى إلى علم ولهذا قال فاعلم ثم أمر بالاسـتغفار بعد ذلك من الذنب . وليس إلا ذنب دعوى الوجود معه تعالى كما قال القائل وجودك ذنـب لا يقـاس بـه ذنب فمراده أن يكون هو ولا تكون أنت معه ثم ابتلاك وامتحنك بما كلفك به مـن الأمـر والـنهي كما قال تعالى ﴿ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (يونس: ١٤) . يعني هل تعلمون بأنفسكم أو تعـلمون بـنا . فـإن شـغلك بتكلـيفه لـك أمراً ونهياً عن مشاهدته . وأوجب دعواك الوجود معه وقـيامك بنفسـك هلكـت عـن بينة وإلا حييت عن بيته كما قال تعالى ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ (الأنفال: ٤٢) .

ثـم قـال ﷺ (العـوام) مـن المسـلمين وهـم الموجـودون فـي زعمهم مع الله تعالى القائمون بنفوسـهم فـي الإيمان بالله تعالى وبما جاءت به رسله عليهم السلام المتثلون بنفوسهم أوامر الله تعـالى المجتنـبون بنفوسـهم عـن نواهـيه (أعمـالهم) كـلها فـي بواطـنهم وظواهـرهم فعلا وتركا (مـتهمات) فـي شـرع الله تعـالى لا يعـلم أحـد فـي صحتها على القطع أو بطلانها لأنها مبنية كـلها في العوام على الشرك الخفي والشرك الخفي غير ظاهر في أحد مخصوص بعينه . وليس ثـم كـلمة تترجـم عـنه مـتى سمعت من أحد حكم عليه به . وكلما يفهم منه ذلك يجب تأويله شـرعاً إذا صـدر ممـن يدعـي الإسـلام كـالعوام فتـبقى الـتهمة في أعمالهم حتى يلقوا الله تعالى فيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون .

ومـتى ظهـر مـن أحدكـم الـبراءة من الشرك الخفي فليس من العوام فهو عامي متهم في العمـل والاعـتقاد (والخـواص) وهـم الموجـودون بـالله تعـالى لا بأنفسـهم القائمون بالله تعالى لا بنفوسـهم فـي الإيمـان والامتـثال والاجتـناب (أعمـالهم) كلها التي يعملونها باطنا وظاهراً فعلا وتـركا (قـربات) يـتقربون بهـا إلى الله تعـالى فكلما عملوا عملا من الطاعات عملوه بالله تعالى لا

بنفوسهم فرفعهم ذلك العمل عن حضيض البعد عن الله تعالى إلى أوج القرب إليه تعالى كما ورد فى الحديث القدسى (لا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه) . (وخواص الخواص) هم العارفون بالله تعالى وبنفوسهم فى تجلياته القائمون بنفوسهم فى الإيمان والامتثال والاجتناب ظهوراً من ظهوراته سبحانه رجعوا من حالة الخواص التى تبرؤا فيها من نفوسهم إلى حالة العوام التى قاموا فيها بنفوسهم . كما قيل أن النهاية رجوع إلى البداية . ولكن قاموا بنفوسهم فى ظهور ربهم بهم ظهور محكوم بحكم وتصوروا به تصور مفهوم بفهم .

فحالة العوام قاصرة عن حالتهم . وان وافقوهم فى الدائرة الصغرى فقد فارقوهم فى الدائرة الكبرى فجاء كلام الله تعالى عن العوام بطريق الغيبة لغيبته عنهم فقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ (البروج: ٢٠) . وجاء كلام الله تعالى عن هؤلاء الذين هم خواص الخواص بطريق الخطاب والحضور لحضورهم عنده فقال تعالى ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ (البقرة: ١١٥) . (أعمالهم) التى يخلقها الله تعالى فيهم وهم غائبون فى شهود الله تعالى عن شهودها كلها لهم (درجات) يرتفعون بها من مقام إلى مقام .

فالعوام واقفون والخواص سائرون وخواص الخواص طائرون .

كما نقل من سهل بن عبد الله ﷺ أنه أرسل إلى أبى يزيد يخبره أن ههنا رجلا شرب شربة فلم يظمأ أبداً . فأرسل إليه أبو زيد ﷺ، يقول له: إن ههنا رجلا شرب جميع الكون وفمه فاغر ينتظر الزيادة فالأولى حالة الخواص والثانية حالة خواص الخواص .

ثم أخذ الشيخ ﷺ يختم رسالته بنحو ما أبتدأها به مما تقدم فقال: (كلما اجتنبت) أيها السالك إليه تعالى (هواك) أى ميلك إلى كل ما سواه تعالى على عادة أو عبادة أو معرفة أو شهود (قوى) أى ازداد واشتد (إيمانك) ﷺ إذ لا تجد ما تهواه وتميل إليه سواه تعالى فتكثر رغبتك فيه فيزيد تصديقك به حتى يصير يقينا به قلبك وتخشع إليه جوارحك (وكلما اجتنبت ذاتك) أى نفسك التى هى حجابك عنه تعالى (قوى توحيدك) له ﷺ التوحيد الذوقى الكشفى الحقيقى الذى ليس معه شرك جلى ولا خفى حتى يكمل ظهور توحيده تعالى بك فيصير تعالى هو الموحد ذاته بذاته أزلا وأبداً . وأما توحيد بقية الخلق فهو ظهور لم يكمل بسبب غلبة البطون عليه فى حضرة من الحضرات الكونية .

(الخلق) مصدر بمعنى المخلوق والمراد به كل ما سوى الله تعالى من ملك ظاهر وملكوت باطن وجبروت كامن (حجاب) لك أيها العبد عن شهود نفسك ولم يقل حجب

لتساويهم فى صفة الحجابية لأن الواحد منهم يحجب كالكثير (وأنت) أى نفسك المحجوب أنت عنها بالخلق (حجاب) لك عن شهود الحق تعالى فأنت حينئذ محجوب عن شهود الحق تعالى بمرتبتين من الحجب مرتبة بنفسك ومرتبة بغيرك فنفسك حجابك عن شهود الحق تعالى وغيرك حجابك عن شهود نفسك (والحق) ﷻ من حيث هو (ليس بمحجوب) عن أحد مطلقاً إذ لا يحجب الا العظيم ولا أعظم من الله تعالى حتى يحجبه وإنما هو موجود ظاهر كمال الظهور ومع ذلك باطن عن غيره كمال البطون فهو ظاهر لا لغيره وباطن لا عن نفسه كما أنه أول بذاته وآخر بخلقه (ومحتجب) ﷻ (عنك) أى عن نفسك وعن إدراك عقلك له وحسك (بك) أى بنفسك وبإدراك عقلك لغيره وحسك (وأنت) أيها العبد (محجوب عنك) أى عن نفسك فلا تعرف نفسك ما هى ويلزم من ذلك لا تعرف ربك لأن من عرف نفسه فقد عرف ربه (بهم) أى بالخلق لأنك تنظر إليهم فتشتغل بمعرفتهم عن معرفة نفسك إذ هم فى الحقيقة صور نفسك ظهرت لك فى نفسك عند تجلى الحق تعالى عليك فى حضرات مختلفة فالمعقولات صور تنطبع فى النفس على مقدار استعداد العقل وهو قوة إدراك النفس لذلك الانطباع ولهذا يختلف الإدراك العقلى بحسب الأشخاص الإنسانية الفاضلة والقاصرة وذلك الانطباع عند تجلى الحق تعالى للنفس بأنواع أسمائه وصفاته فى حضرة كونه معلوما بعد تجليه بالنفس عينها فى حضرة كونه عالماً وكذلك المحسوسات كلها صور تنطبع فى الحواس الخمس التى هى قوى تلك النفس وصور تجلياتها من كونها عالمة على الجوارح الخمس التى هى العين والأذن واللسان والأنف وباقى البدن من كونها معلومة وذلك الانطباع من تجلى الحق تعالى للنفس أيضاً بأنواع أسمائه وصفاته فى حضرة كونه مشهوداً بعد تجليه فى الحواس نفسها فى حضرة كونه شاهداً فهو العالم والمعلوم والشاهد والمشهود وكذلك أنت العالم والمعلوم والشاهد والمشهود لأنك نسخة آدمية وقد قال ﷺ إن الله خلق آدم على صورته وفى رواية على صورة الرحمن وقد أشرنا إلى ما ذكرنا من أن جميع الخلق هم صور نفسك ظهرت لك فى نفسك بقولنا من جملة أبيات لنا فى ديواننا المسمى (سحر الاحداق وبث الأشواق):

أنا كل الوجود والكائنات ... أنا كل الأرواح كل الذوات

أنا كل العقول بل كل شئ ... فى جميع الأزمان والأوقات

ليس كل الوجود إلا أسامى ... والمسمى بكل ذلك ذاتى

والتباسى عليك حيث لباسى ... كل شئ ياقيك فى الآفات

(فانفصل) أيها المحجوب عن ربه بنفسه وعن نفسه بغيره (عنك) أى عن نفسك التى حجبتك عن ربك بعد أن تنفصل عن غيرك الذى حجبك عن نفسك (تشهده)أى تشهد ربك ﷻ الذى ما غاب ولا يغيب ولا هو غائب أبداً بل هو حاضر ناظر دائما سرمدا وأنت الذى تغيب عنه وتحضر بين يديه وتعمى عنه وتنظر إليه فإذا شهدته لا يمكنك أن تشهد معه غيره بل تشهده عين غيره بعد ذهاب اسم الغير عنه فالأغيار لا مسميات لها كما قال تعالى ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ (النجم:٢٣) . والأغيار تماثيل لا حقائق لها كما قال تعالى عن إبراهيم ﷺ أنه قال لقومه ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ (الأنبياء:٥٢) .

وإذا ذهب اسم الغير عنه ذهب رسم الغير أيضا مع ذهاب اسمه فلا يبقى تصوير ولا تكييف ولا تمثيل ولا تعريف بل الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم الذى قامت به الأشياء وامسك بقدرته جميع الصور فى الأرض والسماء (والسلام) أى الآمان منه تعالى عليك حينئذ من كل مخوف فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (يونس:٦٢) . وقال تعالى ﴿ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ﴾ (الأنبياء:١٠٣) .

إلى هنا انتهى بنا الكلام فى شرح الرسالة الشريفة والصحيفة اللطيفة رسالة قطب العارفين وقدرة الواصلين الشيخ أرسلان الدمشقى قدس الله سره فى الأسرار وجعل الله ضريحه مطلعاً لشموس الأنوار ما تعاقب الليل والنهار .

أنتهى كتاب خمرة ألحان ورنة الألحان

وقد نظمت قصيدة فى ختام هذا الشرح المبارك إن شاء الله تعالى مادحاً بها صاحب هذه الرسالة اللطيفة رحم الله تعالى روحه الشريفة ومؤرخاً عام الختام وهى هذه الأبيات :

زدت نــــوراً يــــا أرســــلان وعلـــــيك الله مـــــنان
حلـــة التوحـــيد فـــيك زهـــت ومـــن التحقـــيق تـــيجان
يـــا أبـــا العـــرفان أنـــت فـــتى كـــم بـــدالى مـــنك عـــرفان
غشـــوم يـــوم الوغـــى بطـــل كـــامل مـــا فـــيه نقصـــان
بـــين أهـــل الله ذو شـــرف وعـــلى الخـــيرات معـــوان
ذو الكـــرامات الـــتى شـــهرت ذكـــرها فـــى الـــناس يـــزدان
مـــن رجـــال الحـــق همـــته كـــم بهـــا تـــرتج أركـــان
كلـــه صـــدق ومعـــرفة كلـــه ديـــن وإيمـــان
مـــات حـُتى فـــى الضـــريح لَـــه بـــالهدى روح وريحـــان
وكـــان الـــترب وهـــو بـــه درس يمـــن وفـــيه قـــرآن
كـــان بالمنشـــار مكتســـباً عيشـــته فـــى الله فيـــنان
ينشـــر الاخشـــاب وهـــو عـــلى مـــن هـــداه فـــيه تكـــلان
لم يمـــل مـــال بـــه لســـوى مـــع أن المـــال فنـــيان
ثـــم أن الله رام بـــأن يعقـــب الأســـرار اعـــلان
فـــأراه مـــنه بارقـــة غيـــثها غيـــثها بالكشـــف هـــنان
عـــند مـــا المنشـــار كـــلمه قـــائلا مـــا فـــيه بهـــتان
مـــا لهـــذا قـــد خلقـــت فـــدع عـــنك هـــذا يـــا أرســـلان
وغـــدا المنشـــار منكســـراً حيـــث مـــنه بـــان بـــرهان
وهـــو بحـــر فـــى ولايـــته كـــم أمـــدت مـــنه غـــدران

صاحب الوقت الذى اقتبست — من سناه الإنس والجان
غوث مثلى كم به كرب — فرجت عنى وأحزان
تنقضى حاجات قاصده — سيما إن جاء لهفان
نور حق ماله أبداً — عن دمشق الشام كتمان
طالما قد كان مشتغلا — بالتقى فى الله نشوان
ولَه الأسرار قد كشفت — وأزيلت عنه أكوان
وهو فرد فى حقائقه — زان منه الحسن احسان
حيث أبدا فى رسالته — ما به كم حار انسان
علم توحيد به محيت — عن قلوب القوم أوثان
خمرة فى الحان صافية — أشرقت من نورها ألحان
وجميع الكون من طرب — عند أهل السمع ألحان
كم بها الأرواح قد سكرت — فانثنت تختال أبدان
عقدها بالانتظام لَه — لفظها در ومرجان
كلما قد جئت روضتها — فاح ورد لى وريحان
أطربت سمعى بنغمتها — فاستثارت فى أشجان
واللسان اليوم فاه بما — أودعته فيه آذان
فلهذا قمت أشرحها — وأنا بالنور ملآن
ثم جاء الشرح وهو بها — من غيوث الفتح ريان
روض حسن يانع سرحت — فيه بالتاريخ غزلان
فاقتطفت منه فقد ظهرت — مثمرات فيه أغصان
كل لفظ من عبارته — لأولى الألباب بستان

شـــاده عـــبد الغـــنى لـــن عقلـــه فـــى الله ولهـــان
وهـــو بالتوحـــيد مشـــتغل مالـــه عـــن ذاك ســـلوان
شـــرب الأكـــوان أجمعـــا وهـــو صـــادق القلـــب ظمـــآن
لا لـــذى كـــيف ولا شـــبه ربـــه تـــبر وعقـــيان
ديـــنه تجســـيم خالقـــه وهـــو أعمـــى القلـــب حـــيران
طـــبعه كالصـــخر لـــيس بـــه رقـــة والقلـــب صـــوان
قـــائم بالـــنفس همـــته بطـــنه والفـــرج حـــيوان
غـــافل عـــن ربـــه وإذا قـــال ربـــى فهـــو كفـــران
حيـــث لا يـــدرى الالـــه سـوى فوقـــه والفـــوق طغـــيان
تقـــذف المعـــنى عقـــيدته مـــن كلامـــى وهـــو طعـــان
قـــذف ورد يـــانع نضـــر عـــنه مـــا شمـــته جعـــلان
قـــل لَـــهُ عـــنى كلامـــى لم يـــدره فكـــر وامعـــان
خـــل عـــنك الغـــى لـــيس ثـــرى هـــذه الأنـــوار عمـــيان
فلـــيكف الســـوء عـــن كـــلمى ان خلـــف اللفـــظ ثعـــبان
لـــيس قصـــدى الجـــاهلون وان مدحـــوا قـــولى وان شـــانوا
واذا شمـــس الضـــحى ظهـــرت مالهـــا بـــالقول أبطـــان
ومـــن الله الـــثواب لـــنا نـــرتجى والله محســـان
وعلـــيه الأجـــر مكـــتملا رحمـــة مـــنه وغفـــران
حيـــث بالتوفـــيق ألهمـــنا عـــلم قـــوم قبلـــنا كـــانوا
ثـــم أبقانـــا نفصـــله بعدهـــم طـــبق الـــذى دانـــوا
عـــن أرســـلان الالـــه عفـــا وعلـــيه مـــنه رضـــوان

جـــنة الفـــردوس بـــوأة حوـــله حـــور وولـــدان
وســـقا قـــبراً حـــواء حـــياً مـــن عظـــيم اللطـــيف هـــتان
دائـــم الازمـــان مـــا انعطفـــت بالصـــبا فـــى الـــروض أغصـــان

تم بحمد الله كتاب
خمرة ألحان ورنة الألحان

لصاحبها: على يوسف سليمان وأولاده
١٢ شارع الصنادقية بالأزهر ت وفاكس : ٥٩٠٥٩٠٩
١١ ش درب الأتراك خلف الجامع الأزهر ت: ٥١٤٧٥٨٠
ص.ب ٩٤٦ العتبة ـ الأزهر
جمهورية مصر العربية

إشراف
محمد بن على بن يوسف